

الباب الثالث

■ تنظيم أماكن مزاولة صناعة
الطب.

obeikandi.com

الباب الثالث:

الفصل الأول العيادات الخاصة

إلى جانب البيمارستانات (وهذه سنتحدث عنها بالتفصيل في الفصول القادمة) مارس أطباء الحضارة العربية الإسلامية صنعهم:

في الطرقات والأزقة والأسواق وأمام أبواب البيوت والقصور:

وأشهر من مارس المهنة في هذه الأماكن كان "ماسويه" رأس عائلة ماسويه الشهيرة في الطب، عند أول قدومه إلى بغداد من جنديسابور، وقبل أن يشتهر ويصبح أحد أطباء هارون الرشيد. حيث مارس الكحالة أمام باب المحرم على باب الفضل بن الربيع الوزير^(١). ولكن على وجه العموم كان ينظر إلى هؤلاء الأطباء الذين يعملون في الطرقات والأزقة؛ نظرة احتقار وعدم ثقة، فقد مر علينا كيف أن رئيس الأطباء جمال الدين بن أبي الحوافر قد عنف وأدب أحد الكحالين، عندما رآه في أحد الأسواق واقفا أمام بائع حمص يكحله.

ويقول الشيزري في "نهاية الرتبة في طلب الحسبة": "أما كحالو الطرقات فلا يوثق بأكثرهم، إذ لا دين لهم يصدهم عن التهجم على أعين الناس بالقطع أو الكحل، بغير علم ومخبرة بالأمراض والعلل الحادثة، ولا ينبغي لأحد أن يركن إليهم في معالجة عينه، ولا يثق بأكحالهم وأشياقاتهم"^(٢).

في قصور الخلفاء والسلاطين والأمراء:

أوردنا سابقاً نصاً^(٣) يبين كيف كان الطبيب الخاص يجلس بقاعة الذهب بقصر الخليفة الفاطمي دونه أربعة أطباء أو ثلاثة، حيث يستدعون عند الحاجة للكشف على الأقارب والخواص.

وكتب ابن أبي أصيبعة عن أستاذه الدخوار وموفق الدين يعقوب وكيف كانا يجتمعان في المكان المخصص للأطباء في قصر السلطان:

"وكان في أوقات كثيرة لما أقام بدمشق (يقصد موفق الدين) يجتمع هو والشيخ مهذب الدين عبد الرحمن بن علي (الدخوار) في الموضع الذي يجلس فيه الأطباء عند دار السلطان ويتباحثان في أشياء من الطب"^(٤).

في منازل المرضى:

حيث كانوا يستدعون لعلاج المرضى في منازلهم.

في العيادات الخاصة (حانوت الطبيب):

وغالباً ما يكون موقع العيادة الخاصة في منزل الطبيب أو في أمكنة منفصلة عن المنزل. ويطلق عليها تارة "حانوت الطبيب" وتارة "دكان الطبيب".

فابن أبي أصيبعة عندما يسرد ترجمة الطبيب حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني يقول:

"وكانت له دكان في اللبادين لصناعة الطب"^(٥).

ويصف الرهاوي عيادات الأطباء الذين يحاولون تصيد المرضى: "... وتأمل ما قد نصب من الفخاخ والشباك وأنواع المصايد، أعني بذلك ما يتزيا به أهل الحيل من الزي، وما يعظمون لنفوسهم من المجالس، ويتخذون من الآلات والأمتعة في الدكاكين التي قد كبروها وزخرفوها فليس ينبغي للعاقل أن تغره أمثال هذه الحيل. بل ينبغي له أن يفتقد من الطبيب ما يحسنه وما منزلته من صناعة الطب"^(٦).

ما يجب أن يحتويه حانوت الطبيب ونظام الكشف على المرضى

يجب أن يحتوي "حانوت الطبيب" جميع ما يحتاجه من أدوات طبية حسب تخصصه سواء كان طبائعيًا أو جراحًا أو كحالا أو مجبرًا أو فصادا الخ... وقد وضع بعض كبار الأطباء كتبًا فيما يجب أن يحتويه حانوت الطبيب مثل كتاب علي بن رضوان: "كتاب ما ينبغي أن يكون في حانوت الطبيب"^(٧). وكل هذه الحوانيت تخضع لإشراف الدولة عن طريق المحتسب ومعاونيه.

ولنتعرف الآن على القواعد والنظم التي وضعت في ذلك الزمن والتي وجب على الطبيب اتباعها عند الكشف على المريض في هذه العيادات أو أثناء عيادة الطبيب للمريض في منزله، وقد أوردنا هذه القواعد سابقًا في نص للرهاوي وهنا سنوردها في نص للشيزري، وهي نفسها وردت في نص آخر لابن الأخوة القرشي؛ وغرضنا من ذلك إثبات أن هذه القواعد والنظم كانت معروفة ومطبقة على نطاق واسع وليست اجتهاد شخص واحد، كتب الشيزري:

"وينبغي إذا دخل الطبيب على مريض أن يسأله عن سبب مرضه، وعمّا يجد من الألم، ويعرف السبب والعلامة والنبض والقارورة، ثم يرتب له قانونًا من الأشربة وغيرها؛ ثم يكتب نسخة بما ذكره له المريض، وبما رتب له في مقابلة المرض، ويسلم نسخته لأولياء المريض، بشهادة من حضر معه عند المريض. فإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دائه، وسأل المريض، ورتب له قانونًا على حسب

مقتضى الحال، وكتب له نسخة أيضا، وسلمها إليهم، وفي اليوم الثالث كذلك، ثم في اليوم الرابع، وهكذا إلى أن يبرأ المريض أو يموت. فإن بريء من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته، وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور، وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب، فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب أعلمهم، وإن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم: خذوا دية صاحبكم من الطبيب، فإنه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه، فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة إلى هذا الحد حتى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله، ولا يتهاون الطبيب في شيء منه^(٨).

هوامش الفصل الأول من الباب الثالث

- ١- انظر كامل القصة في الرهاوي: أدب الطبيب ص ٢٢٤-٢٢٨.
- ٢- الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٠٠.
- ٣- ارجع إلى الباب الثاني الفصل الثاني هامش ٥٣.
- ٤- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/٣٥٣.
- ٥- المصدر السابق نفسه ٣/٢٥٩.
- ٦- الرهاوي: أدب الطبيب ص ١٩٢.
- ٧- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٣/١٧٤.
- ٨- الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مرجع سابق، ص ٩٧-٩٨.

الفصل الثاني

الفرق الطبية والبيمارستانات المتنقلة

إيصال الخدمات الطبية إلى جميع المحتاجين لها عن طريق الفرق والبيمارستانات المتنقلة:

لقد حرص حكام الدولة العربية الإسلامية ومسؤولوها على تطبيق تعاليم دينهم الحنيف، بما يحض على فعل الخير وكذلك بما يحمل الحكام من مسؤولية تجاه الرعاية، فعمل المسؤولون على توصيل الرعاية الطبية إلى جميع مواطنيهم بمن فيهم المجرمون المحكوم عليهم في السجون.

أهناك تحمل للمسؤولية أجل مما سنسرده؟ أهناك شعور أرق مما ستشعر به وأنت تقرأ هذا الأمر الإداري؟ لقد أمر الوزير علي بن عيسى الجراح الوزير في وزارة حامد بن العباس زمن الخليفة المقتدر بالله الطبيب ثابت بن قرّة عندما كان يشرف على جميع بيمارستانات بغداد وغيرها، بالتالي:

"فكرت مد الله في عمرك في أمر من في الحبوس، وأنه لا يخلو من كثرة عددهم، وجفاء أماكنهم، أن تتألم الأمراض، وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء فيما يعرض لهم، فينبغي أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم، وتحمل إليهم الأدوية والأشربة، ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى، ويزيحون عنهم فيما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة. ويتقدم بأن تقام لهم المزورات لمن يحتاج إليها منهم"^(١).

وإذا حللنا هذا النص الرائع نجد:

١- الأسلوب المؤدب الراقي الذي يخاطب به الوزير أحد مرؤوسيه، فبكل احترام وتبجيل يوجه الوزير أمره إلى الطبيب لكونه من العلماء: "فكرت مد الله في عمرك..."

٢- الرقة في التعبير والشعور بالمسؤولية تجاه الأشخاص الذين ترى الدولة مسؤوليتها عنهم، ولو كانوا من المجرمين المساجين: "كثرة عددهم وجفاء أماكنهم، أن تتألمهم الأمراض، وهم معوقون..."

٣- مجانية المعالجة الطبية للمساجين من كشف طبي ودواء وشراب وغيره: "تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم، وتحمل لهم الأدوية والأشربة".

٤- التعميم: لم يخص سجنًا معينًا لسبب ما بل عمم أمره على جميع السجون.

"ويطوفون في سائر الحبوس ويعالجون فيها المرضى".

لم يكتف هذا الوزير الإنسان بأن يقدم الخدمة الصحية للمساجين (حيث نستطيع أن نتفهم هذا، من كونهم محجوزين في أماكن مغلقة فإن لم يصلهم العلاج الطبي هلكوا). بل أوصل الخدمات الصحية إلى الأطراف البعيدة عن المراكز الحضرية. فهذا أمره مرة أخرى لمسؤول البيمارستانات (المستشفيات) يأمره بإرسال الفرق الطبية المكونة من أطباء ومعاونين وصيدلية أي ما نستطيع

أن نطلق عليه "البيمارستان المتنقل" إلى الأطراف لخلوها من الأطباء وحاجة الأهالي لها:

"فكرت في من في السواد من أهله، فإنه لا يخلو أن يكون فيه مريض لا يشرف عليهم متطرب لخلو السواد من الأطباء، فتقدم مد الله في عمرك بإنفاذ متطربين، وخزانة للأدوية والأشربة، يطوفون في السواد ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إليه، ويعالجون من فيه من المرضى، ثم ينتقلون إلى غيره"^(٢).

هذا نص يسمو عن أي شرح.

والوزير نفسه يرى أن تصل الخدمة الطبية العلاجية ليس للبشر فقط؛ بل أيضا للحيوانات فإنه يقول في أحد مراسلاته الرسمية: "... ولكن الذي يجب تقديمه والعمل به معالجة الناس قبل البهائم..."^(٣).

من كل هذا نستخلص أنه كان في أوج الدولة العربية الإسلامية فرق طبية أو بيمارستانات متنقلة تنتقل من مكان إلى مكان لتقديم الخدمات العلاجية المجانية لمواطنيها وذلك بأمر الدولة.

هوامش الفصل الثاني من الباب الثالث

١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ٢/٢٠٢.

٢- المصدر السابق المكان نفسه.

٣- المصدر السابق المكان نفسه.

الفصل الثالث

سرايا الطبابة العسكرية

البيمارستانات المحمولة:

في الجيوش الحديثة تصحب القوات الحربية المتقدمة على خطوط المواجهة سرايا تتكون في بعض الأحيان من أطباء ومسعفين ومعاونين وفي أحيان أخرى تقتصر على مسعفين ومعاونين فقط وتقدم الإسعاف الأولي للمصابين قبل نقلهم إلى الخطوط الخلفية حيث تتواجد المستشفيات الميدانية المتنقلة لمواصلة العلاج.

وإذا رجعنا للتاريخ ومعنا هذا التعريف فسنجد أن رسول الله ﷺ هو أول من أنشأ سرايا الطبابة هذه في الإسلام، فعن عائشة رضي الله عنها قالت:

" أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق، رماه رجل من قريش؛ ابن العرقعة، رمى في الأكحل، فضرب رسول الله ﷺ خيمة في المسجد يعوده من قريب" (١).

وإذا أخذنا في الاعتبار تعريف أبقراط المبسط للبيمارستان كما أورده ابن أبي أصيبعة في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" من أنه الموضع المخصص للعناية بالمرضى، يقول ابن أبي أصيبعة عن أبقراط: "ويقال إنه أول من جدد البيمارستان واخترعه وأوجده، وذلك أنه عمل بالقرب من داره في موضع من بستان كان له، موضعاً مفرداً للمرضى وجعل فيه خدماً يقومون بمداواتهم،

وسماه أخصندوكين أي مجمع المرضى وكذلك أيضا تقع لفظة البيمارستان وهو فارسي". نستنتج من كل هذا أن رسول الله ﷺ هو أول من أقام بيمارستانا عسكريا متنقلا، وهذا ينقض قول ابن قتيبة الدينوري الذي أورده في كتابه "الإمامة والسياسة" من أن عبدالله بن الزبير هو أول من أنشأ بيمارستانا للجيش في الإسلام، عندما ضرب فسطاطا في ناحية من المسجد وجعله موضعا لمعالجة الجرحى من أصحابه، والاعتناء بهم والسهر على راحتهم، من قبل من هم أكفاء في هذا العمل^(٣).

ولكننا نميل هنا بأن الذي نتحدث عنه ما هو إلا سرايا طبابة عسكرية أو فرق طبية، والتي تطورت مع التطور الذي شمل الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية، ووصلت إلى درجة من الرقي ما نستطيع أن نطلق عليه بيمارستانات عسكرية كاملة متنقلة صحت الجيوش الإسلامية في أرجاء الأرض، تحتوي على جميع ما يلزم لمعالجة الجرحى والمرضى من عقاقير ومواد وأدوات طبية لازمة ومن أطباء ومشرفين وخدم. وفي كثير من الأحيان ما كان يرافق كبار الأطباء الجيش في حملاته. فهذا زكريا بن الطيفوري أحد مشاهير الأطباء في عهد المعتصم يصحب القائد الكبير "الأفشين"، قال يوسف بن إبراهيم: "حدثني زكريا بن الطيفوري قال: كنت مع الأفشين في معسكره وهو في محاربة بابك..."^(٤).

وكذلك يخبرنا ابن أبي أصيبعة في حديثه عن دراسته على يدي الطبيب الكبير رئيس أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام مهذب الدين الدخوار إذ

يقول: "... وأما أولاً فكنت أشتغل عليه في المعسكر لما كان أبي والحكيم مهذب الدين في خدمة السلطان الكبير..."^(٥).

وكذلك كان الأطباء يصحبون الحجيج إلى مكة المكرمة، فقد ورد في عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة حينما يتحدث عن عمه رشيد الدين بن خليفة: "ولما كان في سنة إحدى عشرة وستمئة حج الملك المعظم وحج عمي معه"^(٦).

وأحسن وصف لهذه البيمارستانات العسكرية هو ما كتبه الكاتبة الألمانية زيجريد هونكة، وهي تصف رحلة الطبيب والجراح البولوني المصاحب لإحدى الحملات الصليبية على مدينة دمياط، وما لاحظته من تفضيل بعض القادة الصليبيين وجنودهم من العلاج لدى أعدائهم العرب في مستشفياتهم العسكرية المتقلة، على الرغم من تحذير رجال الكنيسة لهم حيث كتبت: "إنَّ هذه الكلمات لم تكن لتغير من موقفهم شيئاً، وظلوا يفضلون التداوي على أيدي أطباء الأعداء و(الكفر) ولم يكن هذا بأمر مشرف لرجل وطبيب قد بلغ من العمر ما بلغه (هوجو). وفي خلال هذه السنوات الثلاث، توافرت له أكثر من مناسبة للتعرف على هؤلاء الجراحين المسلمين، الذين كثر فيهم المدح والذم في آن واحد، ورؤية عظمتهم وزيارة مستشفاهم العسكري الذي كان يحمله إلى ساحة المعركة ثلاثون أو أربعون جملاً"^(٧).

هوامش الفصل الثالث من الباب الثالث

- ١- رواه مسلم.
- ٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٥/١.
- ٣- ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة ١٢/٢، نقلاً عن دراسات وشخصيات ص ٢٩٨.
- ٤- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٩٢/٢.
- ٥- المصدر السابق نفسه ٣٩٥/٣.
- ٦- المصدر السابق نفسه ٤٠٨/٣.
- ٧- زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٠٠.

الفصل الرابع

البيمارستانات الثانية

كما ذكرنا سابقاً^(١) من أن هنود سيلان (سيريلانكا) هم أول من بنى المستشفيات في التاريخ في القرن الخامس قبل الميلاد حسب الاكتشافات الحديثة، أما من جهة المصادر العربية القديمة فقد نسبت بناء أول مستشفى في التاريخ إلى أبقرط حينما خصص جزءاً من بستانه لجمع المرضى فيه وتقديم الرعاية اللازمة لهم عن طريق خدم خصصهم لهذا الغرض، وأسماه "أخسندوكين" أي مجمع المرضى^(٢).

ثم تطورت فكرة مجمع المرضى هذا وانتشرت في البلاد الواقعة تحت تأثير الثقافة والحضارة الإغريقية، ووصلت من الانتشار حدا بدأت تظهر معه بعض المشاكل الفنية والإدارية مما دعا قيام طبيب يدعى "روفي الأفي" بالتصدي لها ووضع كتاباً يتناول العمل في هذه المجمعات ووضع بعض الآراء والحلول لهذه المشاكل^(٣). وقد ناقشنا سابقاً كيفية انتشار الطب الإغريقي في العالم القديم ووصول تأثيره إلى الإسكندرية وإنطاكيا ثم آسيا الصغرى ثم إلى فارس وتخوم الجزيرة العربية، ومع هذا الطب انتشرت أيضاً فكرة مجمعات المرضى. وعندما فتح الله أرض فارس للمسلمين وجدوا هذه "المجمعات" وكانت تعرف عندهم باسم "البيمارستانات" وهو لفظ فارسي يتكون من مقطعين:

"بیمار" بمعنى مرضى و "ستان" بمعنى موضع وبهذا يكون معناها "موضع المرضى" أو "دار المرضى"، ومنها انتقل هذا اللفظ إلى العرب وأطلقوه على "مجمع المرضى" المعروف لدينا في عصرنا الحالي بالمستشفى.

وكان أشهر بيمارستان في فارس عندما فتحها المسلمون هو، "بيمارستان جنديسابور" أو "جند يسابور" كما كتبها ابن أبي أصيبعة. وقد لعب هذا البيمارستان دورا كبيرا في تطور الطب عند العرب. فكثير من الأطباء الذين تخرجوا منه لعبوا دورا في تطور الطب وانتشاره خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية مثل "ابن أثال الجنديسابوري" في الدولة الأموية، أو عائلة بختيشوع الطبية التي خدمت خلفاء الدولة العباسية الأوائل أو ماسويه وابنه وغيرهم الذين مر ذكرهم، كما مر ذكر أن بعض أطباء الجاهلية وصدر الإسلام كانوا من خريجي أو ممن عملوا في هذا البيمارستان مثل الحارث بن كلدة الثقفي وابنه النضر.

وبيمارستان جنديسابور هذا هو الذي أعتمد كنموذج أولي بنيت على نمطه أوائل البيمارستانات في الدولة الإسلامية قبل أن يتطور ويصل أعلى درجة من الرقي بالنسبة لذلك الزمن على يد أفذاذ هذه الحضارة الوليدة.

أول بيمارستان في الإسلام؛

أول مستشفى شيد في الإسلام كان بيمارستان الرشيد (البيمارستان الكبير ببغداد)، شيده هارون الرشيد في أواخر القرن الثاني الهجري (أوائل القرن

الثامن الميلادي). علما بأن البعض قد أورد أن أول بيمارستان شيد في الإسلام كان في عصر الوليد بن عبد الملك في سنة ثمان وثمانين هجرية وكان مخصصا للمجذومين. واعتمدوا في ذلك على ما أورده ابن الأثير في الكامل في التاريخ؛ وإذا رجعنا إلى الكامل في التاريخ نجد هذا النص في أحداث عام ثمان وثمانين هجرية تحت عنوان "ذكر ما عمل الوليد من معروف": "... وكتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطرق وعمل الآبار ومنع المجذمين من الخروج على الناس وأجرى لهم الأرزاق"^(٤). وبعضهم اعتمد على ما أورده الطبري حين كتب في تاريخه: "وكان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم، بنى المساجد، مسجد دمشق ومسجد المدينة، ووضع المنار، وأعطى الناس، وأعطى المجذومين، وقال: لا تسألوا الناس، وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً"^(٥).

سواء استدل من هذه الأقوال أن الوليد بن عبد الملك هو أول من بنى بيمارستانا في الإسلام أو لم يستدل، فإن بيمارستان الرشيد هو أول بيمارستان عام به جميع التخصصات المعروفة في ذلك الوقت، أمر بتشبيده هارون الرشيد وأوكل الإشراف على بنائه وتنظيمه لطبيبه الخاص جبرائيل بن بختيشوع ورأسه إلى الطبيب ماسويه الخوزي^(٦). وقد تم بناؤه على نمط بيمارستان جنديسابور بعد تعديله ليلائم العصر. ومنذ ذلك اليوم انتشرت البيمارستانات في جميع أنحاء الدولة الإسلامية، وكما هي عادة علماء هذه الدولة فقد أخضعوا هندستها ونظمها للتحسين والتطوير بعد التجريب لتصل إلى درجة عالية من الرقي تقرب في بعض الأحيان إلى ما وصلت إليه المستشفيات الحديثة، كما سيتبين لنا عند دراستنا لنظم هذه البيمارستانات.

وقد انتشرت هذه الممارسات في جميع مدن الدولة الإسلامية من حدود الصين إلى حدود بلاد الغال ووصل عددها في قرطبة وحدها إلى خمسين بيمارستان.

تقول زيجريد هونكة: "إن كل مستشفى، مع ما فيه من ترتيبات ومختبر، وكل صيدلية ومستودع أدوية في أيامنا هذه، إنما هي في حقيقة الأمر نصب تذكارية للعبقريّة العربيّة"^(٧).

زيارة لأحد بيمارستانات ذلك الزمن

لكي نستطيع أن نصف نظام العمل في البيمارستانات في ذلك العصر والإجراءات التي كانت تتبع عند وصول المريض إلى البيمارستان، أود منك عزيزي القارئ، أن تصحبني أنت وخمسة من أصدقائك، في رحلة تعود بنا القهقري إلى ذلك الزمان، لنزور سويماً أحد بيمارستانات ذلك الوقت لأمراض أملت بأصدقائك الخمسة.

واعلم أن الوصف الذي سنسرده هنا كله من الواقع وله إثباتات مما وصل إلينا من أخبار ذلك العصر في كتب المؤرخين والمعاصرين لذلك الزمن، فالوصف واقعي، فقط وجودك أنت والأصدقاء الخمسة في تلك الحقة هو الخرافي:

الزمان: أحد أيام الأسبوع من أحد أشهر فصل الشتاء لسنة تقع بين القرن العاشر الميلادي والقرن الثالث عشر الميلادي.

المكان: أحد مدن الإسلام المزدهرة والمنتشرة بين جبال الهمالايا شرقاً وجبال البرانس غرباً قد تكون مكة أو سمرقند أو جنديسابور أو بغداد، لم لا تكون المدينة أو القاهرة أو دمشق أو تونس؟

وإن أردت أن تذهب غرباً فلتكن فاس أو قرطبة أو غرناطة، كلها سواء فكل هذه المدن وغيرها من مدن الإسلام، اشتهرت ببيمارستاناتها.

تسلسل الأحداث: أنت تسير الآن في ضاحية من ضواحي أحد هذه المدن
وبرفقتك الأصدقاء الخمسة، وفجأة أصيبوا جميعاً بتوعك صحي:

أولهم برشح وسعال.

ثانيهم بألم في الصدر.

وثالثهم كان مبطوناً يتيقاً دماً.

ورابعهم أحس باختناق شديد.

وخامسهم وآسفاه فقد سقط فانكسرت عظمة الفخذ مع جرح نافذ.

وسادسهم أنت، وأنت والحمد لله سليم معافى ولكنك غريب الزمان والمكان
فتسأل فيدلونك إلى أقرب بيمارستان على ضفة النهر.

كم أنت محظوظ وكم أصدقاؤك محظوظون، فهم سيتلقون أرقى علاج
وصل إليه الطب في ذلك الزمن، وأنت سنحت لك فرصة للتعرف على هذا
البيمارستان الضخم وإجراءات العمل فيه.

سرتم أنت والأصدقاء الخمسة في الدرب المؤدي إلى النهر والهواء البارد
يتسلل إلى عظامكم وهناك على ضفاف النهر ظهر ذلك البناء الضخم تحيط به
الأشجار. وعندما اقتربتم منه أحسستم أن الهواء على برودته نقي وأن الموقع
على انعزاله يقع في أجمل بقعة من المدينة. واجتزتم البوابة الكبيرة والباحة
الكبيرة التي تليها إلى أن وصلتكم إلى المبنى وعندما دخلتموه أحسستم بالدفء

اللطيف يتسلل إليكم. وهناك بعد الباب مباشرة جلس شخص وأمامه دفتر كبير ودواية حبر وريشة، فَحَيَّيْتُمُوهُ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، فرد عليكم بأحسن منها وسألكم عن غرضكم، فأخبرتموه بما تعانون فسألكم عن أسمائكم بكل أدب، وبعد أن سمع جوابكم قيد الأسماء^(٨) في الدفتر الكبير ثم رفع صوته بالنداء بدون صريخ على أحد الغلمان، فجاء غلام جميل الصورة، نظيف الملبس، فطلب منه اقتيادكم إلى الأطباء، فسار الغلام أمامكم خلال ممر طويل نظيف. وعند أول ردهة على يدكم اليمنى توقف وفتح لكم باباً، فإذا أنتم في الإيوان الكبير وجميعه مفروش^(٩)، يتصدره شيخ كبير الرأس^(١٠) جهوري الصوت، ودونه يجلس تلاميذه من كبار الأطباء ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخر^(١١)، وخلف الشيخ مجموعة من الكتب في الخريستانين الذي في صدر الإيوان^(١٢). إن صوته يصل إلى أسمعكم وهو يحاضر على تلاميذه:

"إن الطبيب الحاذق ليس هو من قدر على إبراء جميع العلل، فإن ذلك ليس في الوسع ولا في صناعة أبقراط، وإنه قد يستحق أن يُشكر الطبيب ويمدح، وأن تعظم صناعة الطب وتشرف، وإن هو لم يقدر على ذلك، بعد أن يكون متقدماً لأهل بلده وعصره"^(١٣).

لا تندهش أيها القارئ العزيز أنت والأصدقاء الخمسة، فهذا الشيخ هو أبوبكر الرازي. أراكم تنظرون إلى من يجلس في الصف الأول الذي يلي الطبيب الكبير إنهم كبار الأطباء ورؤساء الأقسام في البيمارستان وعددهم أربعة وعشرون يتناقشون مع رئيسهم "رئيس الأطباء" وتلاميذهم. انظر يا صديقي إلى

يمين الرازي في الصف الأول حيث يجلس أبو الحسن علي بن إبراهيم بن بكس،
ويليه أبو الحسن بن كشكرايا، نعم إن الذي بجانبهم هو الطبيب المشهور
أبوعقوب الأهوازي، ومن تراه جالساً وهو يتناقش مع جاره الكحال (طبيب
العيون) أبو نصر بن الدحلي وجاره هو الجراح أبو الحسن بن نقاح، والجالس
وحيداً في طرف الصف الأول هو المجبر (طبيب العظام) أبو الصلت^(١٤).

والآن عزيزي القارئ وقد ذهبت دهشتكم واطمأنت نفوسكم بأنكم
ستحصلون على أفضل علاج من هؤلاء الأطباء الأفاضل؛ لنر الآن مصير أصدقائك
الخمس وماذا حدث لكل منهم ولنتركهم يحدثوننا بلسانهم عما تم لهم:

الصديق الأول الذي كان مصاباً بالرشح والسعال يخبرنا عن ما حدث له
قائلاً:

جاءني تلميذ من الصف الأخير من الحلقة المعقودة حول رئيس الأطباء،
صغير السن تبدوا عليه ملامح الذكاء، حسن الملبس أبيضه، نظيف البدن، تفوح
منه رائحة الطيب^(١٥). فسألني عن علتي فأخبرته بما أشكو منه فقادني إلى أحد
أركان القاعة الكبيرة معزولاً بساتر عنها، ووجدت هناك أريكة ومنضدة عليها
بعض الأوراق ودواية حبر وريشة، وأثناء سيرنا وجدته ينظر إلى مشيتي وإلى
سحنتي ويركز على خروج الألفاظ من فمي، وعندما وصلنا إلى منطقة الكشف
وجدته قد أخذ يكتب في الأوراق الموضوعة على المنضدة ثم أخذ يسألني وهو
عند المنضدة إن كنت أسمع بوضوح فأجبت بنعم، بعد ذلك أشار بإصبعه إلى
بعض الحاجيات في الغرفة وسألني إن كنت أراها بوضوح، وعندما أجبت بنعم

قيد ذلك في الأوراق لديه. ثم أخذ يتحسس جلدي ليعرف مدى جفافه أو رطوبته، ذلك كان جوابه عندما سألته لماذا فعل ذلك.

وبعدها أخذ يجس نبضي ليعرف حالة قلبي. ثم سألتني أن أستلقي على الأريكة على ظهري ممدود اليدين مع نصب رجليّ وصفهما وأخذ يكشف على بطني، وبعد أن انتهى من ذلك أعطاني قارورة وطلب مني أن أضع فيها بعض البول، وبعد أن عدت أعطيته القارورة^(١٦) فنظر إليها وشم رائحتها. ورجع إلى الأوراق مرة أخرى وأخذ يكتب فيها، ثم أخذها معه وذهب إلى الحلقة التي كان يجلس فيها الأطباء، وتكلم مع شخص يجلس في الصف الثالث^(١٧) وأخذوا يتناقشون وأراه الأوراق وقارورة الماء. وغاب عدة دقائق عاد بعدها الطبيب إلى المنضدة مرة أخرى وعاود الكتابة. ثم جاء إليّ وسألني عن أصدقائي، وطلب مني أن أحضر اثنين منهم على الأقل ففعلت ذلك. بعدها بدأ يطمئنني على صحتي وبألا أقلق وأنه عليّ أن أتناول الشراب الذي وصفه لي. وأشهد صديقي على ذلك وجعلهما يوقعان على الأوراق وأعطاهما إليّ. وطلب مني إن لم أتحسن أن أرجع إليه مرة أخرى ومعي الأوراق. كما أعطاني رقعة بها وصفة شراب لم أفهمها عندما حاولت قراءتها، وطلب مني أن أذهب بها إلى الشرابخانة (الصيدلية) ليحضروا لي الدواء؛ وهذا ما فعلته ثم غادرت البيمارستان.

هذا ما حدث لصديقك الأول الذي ما إن غادر البيمارستان ومعه دواؤه؛ حتى قفل عائداً إلى عصرنا الحديث، وما هو إلا بضع يوم حتى تعافى الصديق بإذن الله.

وأتى صديقك الثاني ليخبرنا بما حصل معه من أحداث فقال:

بعد أن ذهبت الدهشة والرهبة وأنا أستمع إلى الرازي وهو يتناقش مع تلاميذه، حضر إلي تلميذ من الصف الأخير تبدوا عليه علامات النجاسة، أبيض الملابس نظيفها، طيب الرائحة، وسألني عن شكواي فأخبرته بالألم في صدري، فقادني إلى ركن آخر من الإيوان به أريكة ومنضدة وأوراق، ومستور عن بقية القاعة.

(ثم أخذ صديقك يسرد علينا كيف تم الكشف عليه، الذي يطابق الطريقة التي تمت مع الصديق الأول من كشف وتدوين) ثم قال: بعد أن انتهى الطبيب الشاب من كل ذلك ذهب إلى حلقة الأطباء وأخذ يتكلم مع شخص في الصف الثالث، وما هي إلا بضع دقائق حتى عاد ومعه ذلك الشخص، له نفس الصفات من نظافة الملابس وطيب الرائحة ودمائة الخلق. واستأذنتني بأن أسمح له بإعادة الكشف ولاحظت أنه أثناء كشفه توقف كثيراً عندما أخذ يجس نبض يدي اليمنى. ثم ذهب الطبيبان إلى حلقة الدرس مرة أخرى إلى شخص يجلس في الصف الثاني حيث تحدثا معه قليلاً وعادا إلي ومعهما هذا الشخص الثالث. وقدماه إلي على أنه الطبيب موفق الدين أبو العباس بن خليفة الخزرجي، المعروف بابن أبي أصيبعة^(١٨) صاحب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، كان لطيف المعشر مؤدباً فصيح اللسان، أثناء حديثه معي لاحظت أنه يستشهد بأبيات من الشعر وعليه علمت أنه يقرض الشعر كما علمت أنه من عائلة طبية فجده وأبوه وعمه كلهم أطباء وأنه ولد في دمشق ودرس الطب في اليمارستان النوري

الكبير بدمشق، وواصل دراسته في الممارستان الصلاحي في القاهرة وأنه زامل ابن النفيس أثناء تواجده في القاهرة. بعد أن أخبرني سيرته وقرأ الأوراق التي كتبها الطبيب أن أعاد الكشف علي وتوقف عند جس نبض يدي اليمنى، بعدها تركني وذهب بصحبة رفيقيه إلى الصف الأول من الحلقة حيث تحدثوا إلى شيخ هناك لبضع دقائق وعادوا جميعاً إلي مرة أخرى ومعهم هذا الشخص وهو شيخ جليل تبدوا عليه سمات الوقار والعلم، نظيف الملبس طيب الرائحة إنه الطبيب الكبير والعالم الفاضل أوجد زمانه وفريد دهره رئيس أطباء ديار مصر كلها وأطباء الشام^(١٩) مهذب الدين عبد الرحيم بن علي^(٢٠)، وقفوا عندي وابتدروني الشيخ بالسلام ثم سألني عن شكواي فأخبرته ثم نظر إلى ابن أبي أصيبعة وسأله عن رأيه ورأي زملائه فأجاب بكل أدب: "عنده ضعف فنبض يده ضعيف ليعطى مرقة الفروج للتقوية"^(٢١).

فنظر الشيخ الطبيب إلي وأعاد فحصي فحساً كاملاً وقال: "إن كلامه، ونظر عينيه يقتضي الضعف"، ثم أعاد جس نبض يدي اليمنى وجس النبض في يدي اليسرى وقال: "جسوا نبض يده اليسرى" فقام الأطباء الثلاثة بجس نبض يدي اليسرى ثم عادوا إلى اليمنى ثم رجعوا إلى اليسرى وقالوا: "النبض في اليد اليسرى قوي وفي اليمنى ضعيف" فقال لهم الطبيب العالم: "انظروا نبض يده اليمنى وكيف هو من قريب كوعه قد انفرق العرق الضارب شعبتين، فواحدة بقيت؛ التي تجس والأخرى طلعت في أعلى الزند وامتدت إلى ناحية الأصابع، إن من الناس وهو نادر من يكون النبض فيه هكذا، ويشتبه على كثير من الأطباء ويعتقدون أن النبض ضعيف"^(٢٢) ثم أخذ يكتب في الأوراق ووقع عليها ثم وقع

شاهدان على الأوراق، وأعطاهما لي قائلاً: لا تخف يا بني فقلبك سليم والألم في صدرك ليس من القلب خذ هذه الرقعة إلى الشرابخانة سيعطونك شراباً وبعض الحبوب عليك بأخذها ثم تأتي إلينا باكراً للنظر في أمرك وتركني وذهب. فغادرت الإيوان وخرجت إلى الممر فرأيت أحد الغلمان بيده قوارير بها ماء فسألته عن الشرابخانة فقال: تستطيع أن تأتي معي فأنا ذاهب إلى هناك لأعطي لهم هذه القوارير التي بها أبوال للفحص، فسرت معه وأثناء سيري لاحظت أن جميع الممرات نظيفة، والهدوء يسود عليها فيما عدا بعض القاعات التي كنا نمر بجانبها فنسمع أصواتاً رخيمة وقورة لأطباء شيوخ يتناقشون، أو يلقون الدرس على التلاميذ. وعندما وصلنا إلى الشرابخانة، شكرت دليلي وأعطيتهم الوصفة. فطلبوا مني الانتظار قليلاً لكي يقوموا بتحضير وإعداد الدواء لي.

أثناء الانتظار راقبت عملهم ولاحظت أن الصيدلية تشغل مساحة كاملة لقاعة كبيرة أشبه ما تكون بمختبر ومصنع أدوية، فيها موازين حساسة وأثقال دقيقة وبواتق وأنابيب وأواني زجاجية كثيرة ومرود وهون وقوالب غريبة الشكل وأكياس مليئة بأوراق النبات، وسفوف ومعاجين وأشربة كلها مرتبة في نظام بديع ونظافة شديدة. انتظرت حوالي نصف ساعة ثم أعطوني الدواء، فغادرتهم شاكرًا صنيعهم بدون أن أدفع ديناراً أو حتى درهماً واحداً. وعدت إلى السفرخان (الفندق) لأستريح بعد أن تناولت الدواء؛ وقد بدأت بالشراب فوجدت طعمه حلوًا يشبه طعم ما نطلق عليه اليوم "السيروب" وبعد ذلك بلعت الحبوب التي كانت مغلفة بالذهب.

في اليوم التالي أفقت لصلاة الفجر وشعرت بأن الألم في صدري قد تحسن بعض الشيء. وعند الضحى ذهبت إلى البيمارستان مرة أخرى، حسب طلب الأطباء وسألت عن الطبيب ابن أبي أصيبعة، فأفادوني أنه في الإيوان الأوسط يتذاكر مع أساتذته وقادوني إليهم، دخلت الإيوان حيث وجدت ابن أبي أصيبعة والشيخ الطبيب مهذب الدين ومعهما شخصان، عرفت بعد ذلك أنهما الحكيم رضى الدين الرحبي وهو من أكبر الأطباء سناً وأعظمهم قدراً وأشهرهم ذكراً^(٣٢)، والحكيم عمران بن صدقة^(٣٤) طبيب الملوك. وكان الجميع يتذكرون ويبحثون في الأمراض ومداواتها وكيفية الاستدلال على الأمراض وما يجب وصفه للمرضى وما يكتب لهم^(٣٥). اعتذرت لهم لقطعي عليهم دروسهم، فأشار إلي الحكيم مهذب الدين أن أقترب منه وسألني عن شاهدي أمس الذين وقعا على أوراق الكشف الطبي، فأخبرته أنهما بالخارج، فأدخلهما ثم طلب مني الأوراق ونظر إليها وسألني هل تناقص المرض بي، أجبته بنعم، عندها قام وكشف عليّ ونظر إلى قارورتي (بعد أن أعطاني قارورة للتبول فيها)، ثم أخذ يكتب في الأوراق ووقع عليها ووقع الشاهدان وأرجعها إلي طالباً مني مواصلة العلاج وأن أعود في اليوم التالي للنظر في أمري، وعلى ذلك غادرتهم.

عندما صحت في اليوم الثالث شعرت بتحسن كبير ولكن حسب وعدي ذهبت إلى البيمارستان وعندما وصلت سألت عن الحكيم مهذب الدين؛ فأخبروني بأنه يتفقد المرضى في القاعات مع الأطباء والتلاميذ، وأنه متواجد الآن في قاعة المحمومين. فذهبت إلى هناك ووجدته "قد أتى محموم بحمى محرقة وقواريره في غاية الحدة فاعتبر قوته، ثم أمر بأن يترك له في قرح بذور

من الكافور مقداراً صالحاً عيَّنه لهم في الدستور، وأن يشربه ولا يتناول شيئاً غيره" (٢٦).

عند ذلك انتهى من قاعة المحمومين ورآني فاستأذنت منه أن أتبعهم من بعد؛ فوافق ووعدني بأن يقوم بفحصي بعد أن ينهي تفقده للمرضى، فشكرته على سماحه لي بمرافقتهم.

سرنا في الممر المؤدي إلى القاعة التالية. هو في المقدمة وخلفه بقية الأطباء والتلاميذ، وتصادف أن كان بجانبني ابن أبي أصيبعة، فسألته عن القاعة التالية قال: إنها قاعة الممرورين وعندما استفسرت منه ماذا يقصد بذلك أفادني: أنتم في عصركم تطلقون عليها عنبر الأمراض النفسية والعقلية، فأومأت برأسي أنني فهمت المقصود. ودخلنا القاعة ومرر على المرضى، وكان يتوقف عند كل مريض يناقش الأطباء والتلاميذ ثم يأمر بطريقة العلاج ويكتب ذلك في الدستور، فيقوم المشارفون والقوامون بتنفيذه فوراً (٢٧). وقد لفت انتباهي وقوفه عند أحد المرضى، وعندما سألت جاري عن علة المريض أجابني أنه مصاب "بالمانيا" وهو "الجنون السبعي"، ما انتهى جاري من قوله هذا حتى سمعت الشيخ رئيس الأطباء وهو يأمر: "أن يضاف إلى ماء الشعير في وقت اسقائه إياه مقدار متوفر من الأفيون" (٢٨).

وما إن أنهى الحكيم مروره على المرضى؛ حتى أخذني من يدي ومعنا ابن أبي أصيبعة والشهود الاثنين وقادنا إلى قاعة صغيرة. وهناك سألني عن حالي فأجبتته بأنني أشعر بأنني في كامل عافيتي. فنظر إلي وجس نبضي وقال أنت

بخير والحمد لله، تستطيع أن تعود إلى أصدقائك ثم إلى عصرك تصحبك السلامة بإذن الله ولا تنسى أن تترحم علينا وعلى زماننا ففضله على زمانكم عظيم. فشكرته وقلت له الآن علمت فضل زمانكم، وأن زماننا قد ظلمكم وأنكر جميلكم، ودعوت الله له ولجميع أطباء زمانه بالرحمة، ولأطباء زماننا بالصلاح.

وهاأنذا يا أصدقائي فأخبروني ماذا حصل معكم؟

تقدم الصديق الثالث وهو المبطلون الذي ينفث الدم وقال:

لقد تركتموني ونحن في الإيوان الكبير عندما كان رئيس أطباء سائر البيمارستان أبو بكر الرازي يحاضر ويتناقش مع زملائه وتلاميذه. وأنا واقف أتوجع إذ جاءني طبيب مبتدئ من الصف الأخير، فحصني بعد أن سألتني عن علتي وكتب في بعض الأوراق، ثم ذهب إلى حلقة الدرس، وعاد مع شخص من الصف الثالث، أعاد فحصي وذهب مسرعاً إلى الحلقة وعاد مع شاب من الصف الأول بهي الطلعة تدل ملامحه على شدة الذكاء، وقدموه لي على أنه النجم الساطع والشارح الأعظم لكتب أبقراط وابن سينا خريج المدرسة الدخوارية "ابن النفيس". اطمأنت عندما علمت أن ابن النفيس سيكون طبيبي، ونويت أن أناقشه عندما تسنح الفرصة عن اكتشافه للدورة الدموية الصغرى، أتم الطبيب الشاب فحصي، ثم غادرني مسرعاً إلى رأس الحلقة إلى الرازي - الذي في تلك اللحظة كان قد انتهى من محاضراته - وتحدث معه قليلاً، ثم قدم الاثنان إلي حيث كان الطبيبان الآخران ينتظران. وعندما وصلا، وجدت أمامي شيخاً كبير الرأس له هيبة العلماء مع سماحة وجه تدل على إنسانيته التي عرف بها. وبعد

السلام سألني عن علتي أجبتته بأنني أشعر بوجع في البطن وأنتي أنفث دماً^(٢٩) فأعاد الرازي فحصي، وجس نبضي ورأى قارورتي، وأخذ يسألني عن الأعراض، فأجبتته وكان يستمع إلي بكل انتباه، ثم أعاد الفحص عدة مرات، ورأيت علامات التفكير عليه وبدأت أقلق على نفسي وندمت على انتقالي من عصرنا الحديث بكل أجهزة التشخيص إلى عصرهم الخالي من هذه الأجهزة. وجاءني الرازي وأخذ يحدثني وقال: يا بني قد فحصتك فحصاً كاملاً ولم يبق لدي دليل على أن الذي أصابك سل ولا قرحة ولا أورام ولم أعرف العلة. هنا بدأت بالصراخ والنحيب وانهمرت دموعي فإذا كان هذا الرازي وحيد عصره وأعظم الأطباء في ذلك الزمن لم يتعرف على علتي فإنني ميت لا محالة. عندما رأى الرازي حالتي عاد فقال: تريث يا بني قليلاً واصبر. وسأعيد درس قضيتك ومناقشتها مع كبار الأطباء المختصين وسأوفق إن شاء الله في الكشف عن علتك ولكن إلى أن يحين ذلك بإذن الله سأدخلك البيمارستان لتتدبر أمرك، "وأخذ ييث روح الأمل وقوة الحياة في نفسي"^(٣٠). فاطمأن قلبي قليلاً. وأخذ الرازي يكتب في الأوراق وسمعته وهو يغادر الإيوان يقول لمساعديه: انقلوه إلى قاعة الطبائعيين في قسم الرجال.

وجاء بعض الغلمان فأخذوني معهم إلى الشخص الذي قيد أسماءنا عند دخولنا من البوابة حيث قيدوا اسمي^(٣١) وأخذ بياناتي. ثم نقلوني إلى قاعة "الطبائعيين" في قسم الرجال حيث نزعوا عني ثيابي^(٣٢) وأخذوا نقودي حيث أودعت لدى أمين البيمارستان^(٣٣)، وأعطوني وصلاً بذلك. ثم أدخلوني الحمام فأخذت حماماً ساخناً^(٣٤) وألبسوني ثياباً نظيفة^(٣٥) خاصة بالبيمارستان،

وعندما انتهوا من ذلك وضعوني في السرير. كل هذا حدث وكأني في حلم جميل لولا الألم. وعندما انتبعت إلى نفسي وجدتي في قاعة كبيرة بها عدة أسرة، والقاعة في غاية النظافة، تلمست سريري فوجدته وثيراً وأغطيته من الدمسقس الأبيض والملاء بغاية النعومة والبياض كالحرير^(٣٦)، وعلى الرغم من أن الفصل كان شتاء فلم أشعر بالبرد بل شعرت بدفء لطيف، فجميع القاعات مدفأة وفيها ماء جاري.

وحيث كان الوقت وقت الغداء فقد تسلفت إلى أنفي رائحة شواء وطعام أثار شهيتي على الرغم من آلام بطني، ونظرت إلى المرضى في القاعة فبعضهم يأكل لحم الضأن المشوي، وبعضهم أمامه طيور وأحدهم يتناول مرقعة الفروج.

عند ذلك جاءني غلام بشراب طلب مني أن أشربه قائلاً: أنه سيسكن ألم معدتك إن شاء الله، وبعد أن تناولته غفوت قليلاً، وأفقت على أصوات تتحدث وتتناقش عند السرير الذي بجانبني من الجهة اليمنى، فنظرت إليهم فوجدت جمع من الأطباء وبعض الغلمان يتوسطهم شيخ جميل الصورة مرتدياً ملابس فاخرة ثمينة، فسألت غلاماً كان واقفاً بالقرب من سريري عما يكون هذا الشيخ، فأجابني: ألا تعرفه؟ إنه الطبيب المسلم العالم الفاضل سيد الحكماء ذو المكانة الكبيرة عند السلطان صلاح الدين الأيوبي، وهو يقوم الآن بمروره اليومي على مرضاه مع أطبائه وتلامذته، إنه موفق الدين بن المطران. واستمر الغلام في الحديث: وهم يقفون عند مريض به استسقاء زقي قد استحكم به فقصد إلى

بزله^(٣٧). شكرت الغلام على معلوماته وبدأت أراقب ما يحدث، وجدت ابن المطران يفحص بطن المريض ثم طلبَ من أحد مساعديه أن يطلب من الحكيم مهذب الدين وكذلك من ابن حمدان الجرائحي الحضور.

حضر الطبيب ابن المطران، فأخذوا يتناقشون في وضع المريض (وذكرني هذا بعصرنا الحديث عندما يجتمع الأطباء فيما يسمى "كونسلتو" لاتخاذ قرارات إكلينيكية). فأجزموا على بزل المستسقي ويدؤوا بالبزل، فجرت مائة صفراء وابن المطران يتفقد طوال الوقت نبض المريض، فلما رأى أن قوته لا تفي بإخراج أكثر من ذلك، أمر بشد الموضع، وأن يستلقي المريض ولا يغير الرباط أصلاً ووجد المريض خفة وراحة كبيرة، وكانت عنده زوجته وسمعت ابن المطران يوصيها: ألا تمكنه من حل الرباط، ولا تغيره بوجه من الوجوه إلى أن يبصره في ثاني يوم. ثم انصرف الجميع.

قال الصديق الثالث مواصلاً روايته: يا أصدقائي الأعزاء قبل أن أحكي ما حصل معي من أمور علاج الرازي، أود أن أكمل قصة هذا المريض وما حصل معه بعد ذلك في الليل حتى لا أقطع عليكم تسلسلها: عندما جاء الليل قال المريض لزوجته إنني قد وجدت العافية وما بقي بي شيء، وإنما الأطباء قصدهم أن يطولوا بي فحلي الرباط حتى يخرج هذا الماء الذي بقي، وأقوم في شغلي فأنكرت عليه قوله، ولم تقبل منه فعاولها بالقول وكرر ذلك عليها مرات، ولم يعلم أن بقية المائة إنما جعلوا إخراجها في وقت آخر مراعاة لحفظ قوته وشفقة عليه. فلما حلت الرباط وجرت المائة بأسرها خارت قوته وهلك.

بعد أن حضر الأطباء والغلمان وحاولوا إنقاذه وجدوا أنه هلك، فسلموا جثته إلى زوجته وذهبوا جميعاً.

تشاءمت مما حدث لهذا الرجل وتذكرت حالي. وأنا في هذا الحال رأيت شيخاً مقبلاً علي متسائلاً: ما بك؟ فشرحت له علتي وسألته: من أنت؟ قال: جبرائيل بن عبدالله وأنا أعمل في هذا البيمارستان يومين وليتين في الأسبوع^(٢٨)، وهذا موعد ليلتي الثانية هذا الأسبوع. عندها علمت أن نظام المناوبات في المستشفيات ليس اختراعاً حديثاً.

استمر الصديق الثالث في روايته: أفقت في الصباح من النوم والألم قد ازداد قوة والدم ينفث من فمي. حضر رئيس الأطباء الرازي ومعه الأطباء والتلاميذ والمشارفون والقوام، مروا على الأسرة التي قبلي حيث كانوا يتوقفون عند كل مريض. وكان جميع ما يكتبه الرازي لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك^(٢٩).

ثم وصل إلى سريري وأخذ البطاقة التي كانت موضوعة بجانبني منذ دخولي القسم والتي كان يكتب فيها جميع الأطباء الذين مروا علي منذ دخولي إلى البيمارستان، قرأها ثم أخذ يفحصني ويناقش من حوله وأعاد الفحص وبدأ عليه علامات التفكير الشديد وبدأت أقلق على مصيري. فجأة سألني: من أين أتيت؟ فأجبت من زمان غير زمانكم. فابتسم وسألني: هل حضرت مباشرة إلى مدينتنا هذه من زمانكم عافاك الله؟ أجبت: لا، فقد انتهزتها فرصة وتجولت في مدن وبراري زمانكم أيها الشيخ الكريم. فسألني: أي ماء شربت في رحلتك الغربية هذه؟

فأجبت: من مياه الآبار والمستنقعات والصهاريج. فقال الشيخ الجليل والطبيب الكبير: إن علقه دموية كانت في الماء قد علقت في معدتك وإن هذا النفث من الدم هو من فعلها. ثم أخذ يكتب في البطاقة وطلب من بعض الغلمان إحضار مركنين كبيرين من طحلب أخضر، وما هي إلا دقائق حتى أحضروهما وأراني إياهما وقال لي: ابلع جميع ما في هذين المركنين. فبلعت شيئاً يسيراً ثم توقفت. فقال: ابلع! فقلت: لا أستطيع. فأمرني أن أستلقي على السرير وطلب من الغلمان أن يفتحوا فمي ففعلوا، وأقبل الرازي يدس الطحلب في حلقي ويكبسه كبسا شديداً ويطالبني ببلعه. ولكم أن تتصوروا حالي، فقد بلعته شئت أم أبيت، إلى أن بلعت أحد المركنين كارهاً وأنا أستغيث فلا ينفعني مع الرازي شيء، فقلت: الآن سأقذف ما في جوفي فزاد الرازي فيما يكبسه في حلقي، فذرعني القيء فقذفت. وتأمل الرازي القذف فإذا فيه علقه. وفسر لي الرازي ما حدث بقوله: لما وصل إليها الطحلب فضلته بالطبع وتركت موضعها على جدار المعدة، والتفت على الطحلب، فلما قذفت خرجت مع الطحلب^(٤٠). وهكذا أنت معافى الآن ولكن سأعطيك شرباً الآن يريح معدتك وتستطيع الخروج من المستشفى غداً إن شاء الله. فجلست أصيح من الفرح: أنت أمير الأطباء وجالينوس العرب ومنقذ المؤمنين، فابتسم وذهب والكل متعجب من حدة ذكائه وجميل صنعه وحذقه في مهنته.

بعد أن ذهبوا طلبت من غلام القاعة الطعام حيث كنت جائعاً، وما هي إلا بضع دقائق حتى وجدت أمامي: مرق الفروج وشواء من الطيور ولحم الضأن وعصيراً طازجاً، فتناولت غذائي وأخلدت للراحة.

وفي المساء حضر الطبيب المناوب -وكان العالم الفذ "ابن النفيس"- إلى سريرى وسألنى عن حالى فأجبتة بأننى فى حال جيد وزال الألم ولم أعد أنفث دماً. فحمد الله على ذلك وحيث إنّ وطأة الألم على قد ولت، استطعت أن أنظر إليه وتبينت لى ملامحه فوجدته طويل القامة نحيل الجسم ذا رأس نحيف كرؤوس العلماء. ووجدتها فرصة لأتجاذب معه أطراف الحديث فقلت له: سيدي العالم أدام الله عزك إننى من زمان أتى بعدكم وإن لم يستطع أن يثبت أنه أفضل من زمانكم. فأنتم بأدواتكم البسيطة استطعتم أن تصلوا إلى نتائج كبيرة كيف تم لكم ذلك؟

أجاب: يا بني ويا حفيدي، استقراء الطبيعة أسرارها بواسطة الملاحظة والدرس والتجربة، فقد لجأنا فى أبحاثنا " إلى العقل والملاحظة وإلى النظر المحقق والبحث المستقيم، ولا علينا أوافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه..."^(٤٢).

فقلت له: يا أبتي وجد أجدادي من أنت؟

فقال: أنا علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي المعروف بابن النفيس، دمشقي المولد والنشأة والدراسة ثم انتقلت إلى مصر فاشتهرت وعملت رئيساً لأطباء البيمارستان الصلاحي وعميداً للمدرسة الطبيعية الملحقه به^(٤٣) وأنا القائل "لو لم أكن واثقاً أن تصانيفي ستعيش بعدي مدة عشرة آلاف سنة لما كتبتها"^(٤٤).

فقلت له: سيدي إنني آت من زمان أغرابك جحدوا فضلك ونسبوه لقوم منهم، أحفادك نسوا فضلك مثل ما نسوا فضل إخوتك، وصدّقوا الغرباء فيما نسبوه. ليس فقط الأحفاد نسوا بل إخوتك وأبناءؤك نسوا أو تناسوا ما فعلت، فلم يذكروا ذلك في كتبهم إلى أن أتى أحد أحفادك وهو الطبيب العربي المصري التطاوي في عام ١٩٢٤م ليكشف للعالم أجمع بأنك مكتشف الدورة الدموية الصغرى وليس هارفي أو المدعي ميخائيل سارفيتوس. فحدثني عن هذا أيها الجد العظيم.

قال ابن النفيس: يا بني أما أن سارفيتوس دعي فهذا صحيح فقد سرق العمل ونسبه إلى نفسه بعد أن قرأ ترجمة كتابي "شرح تشريح القانون" إلى اللاتينية التي قام بها طبيب إيطالي يدعى (الياغو) الذي زار دمشق ورجع منها بعدة مخطوطات، بينها كتابي، فترجمه ونشره باللاتينية عام ١٥٤٧م أي قبل وفاة سرفيتوس بست سنوات^(٤٥).

وبعدي بثلاثمئة عام. لا غفر الله له.

أما هارفي لا أدري فقد يكون توصل إلى ذلك بعلمه، وبما وصل إليه الطب في ذلك الحين من تطور وتقدم أساليب التشريح. فالعلم يا بني يبني بعضه فوق بعض. وهذا لا ينفي فضلي بكوني أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى. وأني أثبت أن القلب لا يتغذى بالدم المتواجد في البطين الأيمن، بل غذاؤه إنما هو من الدم المار فيه من العروق المارة في جرمه. ودحض بذلك نظرية ذلك المدعي وصاحب الإسهابات التي لا طائل تحتها^(٤٦) أقصد جالينوس.

أما التطاوي ذلك الحفيد فشكراً له على إظهاره الحقيقة، وأناشد أحفادي أن يظهروا حقيقة أجدادهم فهم لهم فخر ودافع في الوقت نفسه لكي يبتكروا ويقدموا للإنسانية ما قدمه الأجداد.

عند ذلك غادرني عالمنا ابن النفيس وأخذت إلى النوم.

في الفجر صحوت من النوم ورذاذ المطر يتساقط في الخارج فالفصل شتاء، ومع هذا لم أشعر بالبرد؛ فالقاعة مدفأة. وتوضأت بالماء الجاري الواصل إلى جميع القاعات ثم ذهبت إلى المسجد وصليت. وعندما رجعت وجدت فطوراً جاهزاً من كل ما لذ وطاب: من البيض، والخبز، والجبن والزيتون وكل ما تشتهي النفس على الإفطار.

وفي الصباح الباكر، وصل رئيس الأطباء مع فريقه في مرورهم الصباحي على المرضى وتوقف عندي وأخذ البطاقة وقراها، ثم سألني عن حالي فأخبرته، بأنني أشعر بأنني سليم معافى. قال لي بعد أن كتب بضع كلمات في البطاقة وبضع كلمات في أوراق أخرى أخذها معه (علمت بعد ذلك أنها ملفه الخاص): تستطيع أن تخرج اليوم، وتعود إلى زمانك سليماً معافى بإذن الله.

بعد أن شكرته ودعوت له قلت له: سيدي -غفر الله لك- أنت تعلم أنني من زمان آخر متقدم على زمانكم، فهل من نصيحة توجهها إلى أطباء زماننا من أحفادك؟

قال الرازي: يا بني الزمان غير الزمان والمكان غير المكان وإن بقي في الموقع نفسه، والناس غير الناس وإن بقي اللسان هو نفسه، فالفاصل ألف عام أو

أكثر. ولا تتسأ أنني القائل "بانتقال الكواكب الثابتة في الطول والعرض تنتقل الأخلاق والمزاجات... وباختلاف عروش البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطباع الأدوية والأغذية..."^(٤٧).

كيف والفاصل عشرة قرون؟ إن حولتها إلى مسافة كان الفاصل آلاف الآلاف من الفراسخ؛ فقد علمت أنه في زمانكم يقيسون المسافات بالزمن. فخلال هذا الفاصل الزمني والمكاني حصلت أمور وأحداث عظيمة، هوت حضارات من الأدوار العليا إلى الأدوار السفلى وصعد أقوام من القاع إلى حضارات الأدوار العليا. سقط أسياذ وصعد برابرة وأصبحوا بسلطان العلم أسياذاً وكله بتدبير الخالق القدير.

يا بني العلم تطور منذ زمن الفراعنة والآشوريين إلى زمانكم ذلك كخط مستقيم مائل متصاعد. أسهم أقوام وأمم كثيرة فيه، كل أمة صبغته بطابعها وعقائدها المميزة لها. وأمتنا يا بني حملت لواء الحضارة لمئات من السنين حافظت عليه وأضافت إليه الكثير الكثير وصبغته دوماً بعقيدها الإسلامية وروحانيته ولم تخلق تناقضاً بين العلم والعقيدة فلذا كان العلم ومنه الطب في حضارتنا في زماننا إنسانياً.

لا شك أن الطب تطور في زمانكم تطوراً هائلاً في طرق التشخيص والعلاج ومعرفة مسببات الأمراض، ومن يطلب منكم بالعودة إلى طرق علاج زماننا فهو جاهل جاهل. ولكن اعلم يا بني، أن زمانكم لم يصل إلى ما وصل إليه من تطور إلا لاستخدامه المنهج العلمي وأقول لك بكل فخر إننا نحن أجدادك وضعنا أسس هذا المنهج العلمي، من المشاهدة والوصف والتجربة والاختبار.

فأنا القائل " ما اجتمع الأطباء عليه وشهد عليه القياس وعضدته التجربة فليكن أمامك وبالضد" (٤٨). وقال زميلي الطبيب الأندلسي ابن الخطيب "مبدئياً يجب أن يكون كل برهان متوارثاً، قابلاً للتعديل، إذا ما اتضح لحواسنا عكسه" (٤٩).

وقد قال ابن النفيس أيضاً: "وأما منافع الأعضاء فإنما يعتمد في تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، ولا علينا، أوافق ذلك الرأي من تقدمنا أو خالفه" (٥٠).

واستمر الشيخ في حديثه: يا بني الطبيب في زمانكم يشخص المرض بطرق أفضل من زماننا، وإذا شخص المرض تشخيصاً صحيحاً فالبيديهي أن يعالج المرض أفضل منا، وخاصة أن العلاج تطور تطوراً مذهلاً في زمانكم، ولكن طبيبك نسي، أو تناسى أو اعتمد على وجود ما يسمى في زمانكم "أقسام الطب الوقائي"، إن عليه واجباً نحو المريض لمعرفة أسباب ظهور أعراض المرض لديه، وكيف كان يمكن أن يقيه المرض، أي أستطيع أن أقول يا بني إن طبيب زمانكم الفرد وأكررها الفرد حيث لا أقصد التنظيمات التي أنشأتها كإقسام الطب الوقائي أو منظمة الصحة العالمية، هذا الطبيب الفرد نسي في غمرة انشغاله، في تشخيص الأمراض وعلاجها ونشر الأبحاث عنها وظيفه أخرى مهمة من وظائفه، بل أحياناً أسقطها من حساباته وهو كيفية المحافظة على الصحة. فالمحافظة على الإنسان الصحيح وظيفه كل طبيب في مجال عمله وليست وظيفة بعض المؤسسات الصحية والعاملين فيها فقط.

ففي زماننا يا بني جعلنا هذه الوظيفة أهم وظيفة للطبيب، وهذا ما يميز الطب العربي عن غيره، بل بالغنا في ذلك عندما قال أحدنا: "إن موضوع صناعتنا حفظ الصحة لا مداواة الأمراض"^(٥١) وكذلك عرّف أحدنا وظيفة الطبيب بالآتي: "حفظ الصحة الموجودة، ورد الصحة المفقودة بحسب الإمكان".

ولهذا أصبحت طرق حفظ الصحة هي غايتنا ومرادنا، ولا تجد طبيباً من أطباء زماننا كتب في الطب إلا وجدت له كتاباً أو فصلاً من كتاب في حفظ الصحة.

سأعطيك مثلاً وليس حصراً عما فعلته "أنا": فالمقالة الرابعة من كتابي الضخم "المنصوري" "في حفظ الصحة"^(٥٢).

وفي كتابي "الجامع" وسمي أيضاً "حاصر صناعة الطب" وهو ينقسم إلى اثني عشر قسماً جعلت القسم الأول منه "في حفظ الصحة".

كما كتبت في مواضيع تهم الصحة العامة أو ما تطلقون أنتم عليها "التثقيف الصحي" مثل رسالتي "في الحمام ومنافعه ومضاره"^(٥٣).

سكت الرازي قليلاً وأخذ نفساً عميقاً ثم واصل حديثه:

يا بني أطباء زمانكم برعوا في التشخيص والعلاج بما توفر لهم من أجهزة وإمكانيات لم تتوفر في زماننا، وتراكمت لديهم المعرفة، بحيث لا يستطيع الشخص الواحد أن يدركها كلها فتخصصوا وتخصصوا ثم تخصصوا. وأصبح لديكم في زمانكم أطباء يعرفون كل شيء عن المرض ولا يعرفون شيئاً عن

الإنسان الذي يفحصونه وخاصة عن روحه ونفسه. لقد فصل أطباء زمانكم النفس عن الجسد فأصبح لهذا أطباؤه وتلك أطباؤها، وقد يكون هذا جيداً في علاج أمراض هذا وتلك، ولكن تناسوا أنه قد يكون أمراض هذا بسبب مرض تلك.

بل وصل الحال بأطبائكم الذين هم نتاج الحضارة المادية السائدة في زمانكم أن يقول الطبيب للمريض: لا فائدة، أنت ميت لا محالة، بل قد يحدد له المدة التي بقيت له. لا حول ولا قوة إلا بالله.

أما في زماننا فكنا ننظر إلى الإنسان بأنه إنسان من جسد وروح وأنا القائل: "ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً بالصحة ويرجيه بها، وإن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس"^(٥٤). وقد كتب أطباء زماننا الكثير من الكتب والمقالات في هذا المجال ولكي لا أتهم بالترجسية فأستشهد بكتاب لطبيب آخر من زماننا وهو لابن جميع المصري "كتاب الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد"^(٥٥).

فجأة توقف العالم الإنسان عن الحديث ونظر إلي ملياً ثم سألني: هل تريدني أن أواصل الحديث، أم مللت أنت والقارئ الكريم؟ فأنا أعلم عن عصركم، أنكم تملون وبسرعة، لأن "ريتم" حياتكم سريع. واسمح لي يا بني أن أستعمل كلمة "ريتم" وذلك لسببين:

أولهما لأبين لك أنني كتبت في الموسيقى، والثاني لأنني أعلم عن عرب زمانكم بأنهم لا يعتبرون المثقف مثقفاً إلا إذا استعمل في كلامه الألفاظ

الإفريقية، بل وصل بكم الحال، إلى أن عرب زمانكم جعلوا لغة طبهم في زمانكم لغة الفرنجة وتركوا لغة الأجداد، لغة القرآن اللغة التي كتب بها عرب زماننا وعجمه ورومه وبربره فوسعت كل العلوم.

قال الصديق الثالث: أوجعني كلام الرازي فنكست رأسي خجلاً وقلت: أنني لم أمل من كلامك قط يا سيدي، هذا عن نفسي، أما عن القارئ فتترك ذلك له، أما عن اللغة العربية فمعك الحق كل الحق، ولكن ليس هذا مجالنا الآن.

والآن أود منك يا سيدي الجليل أن تتكرم علي وتخبرني، ماذا يمكن أن يستفيد أطباء زماننا من عرب ومسلمين من أطباء زمانكم، أطباء الحضارة العربية الإسلامية؟

أجاب الرازي فقال: سأطيل الإجابة لأنك وضعت يدك على الداء كما يقولون وإن هذا هو بيت القصيد، يا أيها الحفيد المتذبذب بين حضارة مضت كان لأجدادك السيادة فيها وإن لم تشارك أنت فيها؛ وحضارة أتت في غفلة منك ليس لك فيها سيادة ولا حتى مشاركة.

يا بني، سأبدأ الإجابة بأن أتكلم عما لا يجب أن يأخذوه منا. فقد ذكرت لك سابقاً، أن طرق التشخيص والعلاج تطورت في زمانكم تطوراً هائلاً، وذلك نتيجة طبيعية لتطور المعرفة الإنسانية في كافة العلوم، فمن غير المعقول أن يأتي إنسان ويقول بترك هذه الطرق المتقدمة في التشخيص والعلاج والعودة إلى طرق زماننا ونظرياته. فنظرية زماننا في المرض والعلاج تقوم أساساً على النظرية

التي ورثناها من اليونان وتقوم على العناصر الأربع والأخلاط الأربع والطبائع والأمزجة الأربع. وأنه عندما تكون النسب بين الأخلاط الأربع في وضعها الطبيعي يكون الجسم في حالته الصحية الطبيعية وهو ما نسميه اعتدال المزاج والذي يحدث المرض هو اختلال النسب بين الأخلاط أو فسادها، بينما العلم في زمانكم توصل إلى أن الأمراض نفسها هي التي تؤدي إلى فساد السوائل وبالتالي الأخلاط. وكما قلت لك هذه النظرية التي ورثناها عن أبقرات وجالينوس، وكعادة علماء الحضارة العربية الإسلامية أخضعناها للتجربة فما أثبتت التجربة صحته أخذناه وما أثبتت التجربة خطئه تركناه، وما لاحظناه، وجربناه، وأثبتته الاختبار أضفناه. بل إنني قمت بتجارب على الحيوانات، ففي يوم سقيت قرداً قليلاً من الزئبق، ودونت ما سجلت وكتبت استنتاجي، صحيح أن استنتاجي كان خاطئاً، ولكن ذلك يرجع إلى الخطأ في الملاحظة وليس خطأ في التجربة (٥٦) وهكذا نما لدينا العقل التجريبي إلى جانب العقل التمييزي والعقل النظري. وأستطيع أن أقول لك يا بني إننا نحن الذين وضعنا أسس المنهج العلمي التجريبي وأعطيتك سابقاً أمثلة على ذلك من أقوالي وأقوال ابن الخطيب وأقوال ابن النفيس.

هذا المنهج وعلم الكيمياء الذي مارسه أنا أيضاً انتقلاً إلى الغرب في زمان قريب من زمانكم، وأديا إلى حتمية نقض نظرية الأخلاط الأربع، وظهور الطب الحديث، ويا بني لو (وأنا أعلم أن لو للتمني) استمرت الحضارة العربية الإسلامية ولم تنتكس لاستطاعت الوصول بالطب إلى ما وصل إليه الطب في زمانكم، وخاصة أننا ملكتنا المنهج العلمي وعلم الكيمياء ولكننا نحن أنفسنا تخلينا

عن نظرية أبقراط ونظريات المرض والعلاج التي اعتمدت في زماننا. هذا ما يجب على أطباء زمانكم أن يتركوه. أما ما يستطيعون أخذه من أطباء زماننا فهي "القيم" والإنسانية في شموليتها، ولا تعتقد يا بني عافاك الله أن هذا قليل، فالطب في زمانكم من حيث كونه ناتجاً للحضارة الغربية وهي حضارة مادية - كما تعلم أكثر مني حيث أنك معاصرهما - ناقص القيم والأخلاق المهنية والإنسانية. طبيب زمانكم يقسم قسم أبقراط وهو لا يعلم على ماذا أقسم وإنه لا يطبق علمه، لا شك أن هناك حالات فردية إنسانية كثيرة في أطباء زمانكم ولكنها لا تعبر عن الاتجاه العام لمدرسة الطب لديكم. هل تستطيع أن تخبرني كم كتاباً طبع عن أخلاق المهنة أو سلوكيات الطبيب في زمانكم وكم محاضرة ألقيت في جامعات زمانكم عن هذا الموضوع. لقد نمت إلى علمي أن أستاذاً جامعياً في زمانكم أراد أن يعد محاضرات عن الأخلاق الطبية يلقيها على طلبته فبحث عن مراجع هذا الموضوع فلم يجد إلا القليل، وعاد يبحث عن المناهج الدراسية لعدة جامعات فلم يجد شيئاً يذكر عن الأخلاق الطبية، وتذكر أنه وهو طالب في كلية الطب، درس مئات الساعات عن التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلوم الأمراض ولكنه لم يدرس إلا سويغات محدودة عن كيفية تعامل الطبيب مع مريضه. وهذا ليس بغريب على طب زمانكم حيث إنه منتج للحضارة المادية.

أما الطب في زماننا حيث أنه منتج لحضارة روحانية لم تهمل المادة، حضارة أعطت للجانب الروحي حقه وللجانب المادي حقه، بدون أن تفصل بين الجانبين وجمعتهم في منظومة واحدة ألا وهي الحضارة الإسلامية، فكان كل منتج من إنتاجها يتمتع بناحية مادية تتعامل مع وقائع الحياة اليومية وتلبي

حاجيات البشر الدنيوية مسبغة دوماً بناحية روحانية تستمدّها من تعاليم الإسلام الحنيف، وهكذا كان الطب كمنتج لهذه الحضارة.

قارن يا بني بين أستاذ عصركم الذي لم يجد مرجعاً في أخلاقيات الطب في زمانكم وبين ذلك السيل من الكتب والأجزاء والمقالات التي كتبت في هذا الموضوع في زماننا، حيث لا يوجد طبيب عالم في عصرنا لم يؤلف في هذا الموضوع.

وأنا القائل: "ينبغي أن تكون حالة الطبيب معتدلة لا مقبلاً على الحياة كلية ولا معرضاً عن الآخرة كلية، فيكون بين الرغبة والرغبة" ^(٥٧) وكذلك وضعت كتاباً بعنوان "شرف الصناعة وفضلها" ^(٥٨) وغيرها من المقالات.

وانظر إلى ابن رضوان وشروطه السبعة لمعلم الطب وكذلك شروطه لمتعلم الطب ^(٥٩) ومقالته في شرف الطب. وكذلك كتاب مناقب الأطباء لعبيد الله بن جبرائيل أو كتاب ثابت بن قرة "في الأخلاق" أو رسالة ابن جزلة في مدح الطب وموافقته الشرع والرد على من طعن عليه. وهذا موفق الدين عبد اللطيف البغدادي يقول: "ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة إذا أويت إلى منامك، وتتنظر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها، وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها، وتقلع عنها" ^(٦٠) وكتابه "المراقبي إلى الغاية الإنسانية" وهذا الرهاوي يضع كتاباً كاملاً عن "أدب الطبيب" ^(٦١) من عشرين باباً، يتناول في الباب الأول: في الأمانة والاعتقاد الذي ينبغي أن يكون الطبيب عليه والآداب التي يصلح بها نفسه، وأخلاقه.

هذه، يا بني مجرد أمثلة وددت أن أضربها لك.

هذا يا بني ما يجب على أطباء زمانكم أخذه من أطباء زماننا. أن يعيدوا للطب القيم الأخلاقية والقيم الإنسانية التي افتقدها. وهذه هي الرسالة التي يجب أن يحملها أطباء زمانكم من العرب والمسلمين. قد يحاول بعض أطباء زمانكم من العرب والمسلمين أن يسهموا في تطوير الطب مع زملائهم من أطباء الفرنجة وقد ينجح البعض منهم إن استغربوا، ولكنهم سيبقون في الأطراف تابعين ومتلقين، ما دام التيار العام للحضارة لديهم؛ لظروف موضوعية كثيرة لا مجال لذكرها هنا. وسيبقى هذا التيار العام للحضارة لديهم ما دامت هذه الظروف في صالحهم ولدة طويلة كما يظهر. وإذا لم يبادر أطباء زمانكم من العرب والمسلمين بتبني رسالة وهدف لهم؛ سيبقون تابعين للغرب ومتلقين لما ينتجه ولكن نادرا ما سيكونون من المساهمين في حضارة زمانكم. فلتكن رسالتهم إعادة القيم والإنسانية إلى صناعة الطب.

فأطباء زمانكم من العرب والمسلمين هم الورثة الطبيعيون للحضارة الإسلامية بكل قيمها وروحانياتها والطب العربي بكل قيمه وإنسانيته. ولا تنتظروا أن تأتيكم القيم مع الطب الذي درستموه في الغرب فهو منتج حضارة مادية، وفاقد الشيء لا يعطيه. ولكن أطباء زمانكم من العرب والمسلمين أمامهم فرصة تاريخية ليكونوا أصحاب رسالة ويسهموا في الحضارة الحديثة في زمانكم بدلا من أن يعيشوا على الهامش بأن يجعلوا رسالتهم إلى جانب معالجة المرضى نشر القيم والأخلاق التي ميزت الأطباء العرب في العصور الوسطى وذلك بأن يتحلو بها أولا ثم يقوموا بنشرها في العالم.

ليتحلوا بما طلبه ابن رضوان من الطبيب:

- أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء حسن الذكاء جيد الرؤية عاقلاً ذكوراً
خير الطبع.

- أن يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب.

- أن يكون كتوماً لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم.

- أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يتلمسه من الأجرة
ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

- أن يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

- أن يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة لا يخطر بباله شيء من
أمور الفساد، والأموال التي شاهدها في منازل الأعيان فضلاً عن أن يتعرض إلى
شيء منها.

- أن يكون مأموناً ثقة على الأرواح والأموال، لا يصف دواء قتالاً ولا يعلمه،
ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

وقبل أن أغادر يا بني هناك نقطة لاحظت أنك تهربت منها، عندما
حدثتك عن أن الأطباء العرب في زمانكم لا يدرسون الطب بلغتكم العربية. ولكن
لا تتهمني يا بني بالعاطفية وعدم تحكيم العقل في هذا الموضوع، أود أن أحيلك
إلى ابن خلدون وما قاله في هذا المجال في مقدمته. فقد تناول ابن خلدون في

مقدمته الصعوبات والقصور في تحصيل العلم الذي يواجهه الأعجمي أو الرومي أو البربري أو الفرنجي، الذي يتعلم اللغة العربية على كبر ويستعملها في تحصيل العلم، حيث كانت اللغة العربية هي لغة العلم في زماننا وزمان ابن خلدون.

وأود منك أن تطبق ذلك على أطباء زمانكم من العرب في استعمال لغة غير لغتهم يتعلمونها على كبر في تحصيل العلم؛ فقد تستطيع أن تتعرف على أحد أسباب القصور في مساهمة الأطباء العرب في زمانكم في تطور الطب.

اقرأ وطبق ما قاله ابن خلدون: "في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي"^(٦٢).

ومما يقوله في هذا المجال: "واللغات إنما هي ترجمات عما في الضمائر من تلك المعاني، يؤديها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم" ويواصل "والألفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر، وروابط وختام عن المعاني ولا بد من اقتناص تلك المعاني من ألفاظها لمعرفة دلالاتها اللغوية عليها" ويواصل "اللغة ملكة في اللسان، وكذا الخط صناعة ملكتها في اليد؛ فإذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة، صار مقصرا في اللغة العربية.....، وإذا كان مقصرا في اللغة العربية ودلالاتها اللفظية والخطية اعتاص عليه فهم المعاني منها كما مر".

"والأعجمي المتعلم للعلم في الملة الإسلامية، يأخذ العلم من غير لسانه الذي سبق إليه ومن غير خطه الذي يعرف ملكته. فلهذا يكون له ذلك حجاباً كما قلنا"^(٦٣).

قال الصديق الثالث: عند هذا ودعني شيخنا الكبير. فجمعت حاجياتي واستعددت لمغادرة الممارستان، وقبل أن أترك القاعة، جاء أحد القوام وأعطاني مبلغاً من المال قائلاً: هذا لمعيشتك عن الأيام التي قضيتها في الممارستان ولأيام نقاهتك إلى أن تعود إلى عملك^(٦٤). أخذت المال وجئت إليكم معافى وجيبي ملآن فالحمد والشكر لله.

بعد أن أنهى الصديق الثالث حكايته؛ جاء الصديق الرابع الذي كان يشكو من احتباس البول وقال:

بعد أن تركتموني في الإيوان، حصل معي ما حصل معكم، إذ أتى تلميذ كشف علي بمثل ما كشف عليكم وذهب إلى الحلقة، وعاد مع شخص أعاد الكشف علي ثم خرج هذا الشخص من الإيوان، وأثناء ذلك أخذ الطبيب الأول يكتب في الأوراق وبعد قليل عاد الطبيب الثاني مع كهل يبدو عليه النبوغ والذكاء مع تواضع جم ورقة بالغة. قام الطبيب الثاني بتقديمه إليّ بأنه أبو القاسم خلف ابن عباس الزهراوي، عندما سمعت ذلك، لم أصدق أذني ولا عيني، بأن الذي يقف أمامي هو العالم الكبير والجراح الفذ، مؤسس صناعة الجراحة التي تقوم على العلم، ثالث ثلاثة نوابغ الطب العربي: الرازي وابن سينا والزهراوي، انحنيت أمامه احتراماً وتقديراً على الرغم من حالتي وما أدراك ما هو إحساس محتبس البول.

أجابني الزهراوي على تحيتي بابتسامة مشرقة وسألني بكل رقة عن شكواي فأخذت أسردها عليه بسرعة.

ابتسم الجراح الكبير وسألني: تأتئ يا بني، لماذا هذه السرعة؟ هل أنت في عجلة من أمرك؟ أجبت: أنا ليس في عجلة من أمري، ولكنني تعودت في زماننا، على أن أطباءنا وخاصة الكبار منهم يكونون دائماً في عجلة من أمرهم ولا وقت لديهم للمريض، ساعدهم الله.

قال الزهراوي ونبرة حزن في صوته: أعان الله مرضاكم. يا بني، علّمنا معلومنا، أن نعطي الوقت الكافي للمريض، وأن لا نكل من مسائلته عن أعراضه وشكواه. فهذا الرازي يقول: " ينبغي للطبيب أن لا يدع مسألة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من داخل ومن خارج، ثم يقضي بالأقوى" (٦٥).

ويقول ابن رضوان: وأما فيما يتعرف بالمسألة فابحث عنه بالمسألة، حتى تعتبر كل واحد من العيوب فتعرف هل عيب حاضر أو كان متوقعاً، أم الحال حال صحة وسلامة" (٦٦). فخذ راحتك يا بني وتأتئ في سرد شكواك حتى أعلم علتك.

قال الصديق الرابع سارداً بقية القصة لزملائه: عند ذلك اطمأن قلبي، وأحسست بالراحة النفسية وأنا أحكي له وأحكي. بعدها بدأ يفحصني بالطريقة التي سردها لنا صديقنا الأول والثاني، ثم قال الزهراوي: " البول المحتبس في المثانة يكون سدة من ورم أو حصاة أو دم جامد أو قيح أو لحم نابت أو نحو ذلك..." (٦٧).

وأنا أعتقد أنها حصاة قد صارت في عنق المثانة وسأحاول أولاً أن أطلق البول منك بدون استعمال الآلة المسماة قثايطير. وسأشرح لك الطريقة لكي تعلمني بعدها إن كنت موافقاً أم لا. والطريقة تتلخص بالآتي:

سأطلب منك أن تجثوا على ركبتيك ثم سأركب أنا على ظهرك وأمد بطنك على ظهرك وعليك أن تمسك نفسك ما أمكنك فيضطر حينئذ عنق المثانة إلى دفع الحصة إلى خلف فينطلق البول^(٦٨). فهل توافق على ذلك؟

أجبتة بالإيجاب، فقام بفعل ما شرحه بالقول، فلم يخرج البول، عند ذلك قال لي: يا بني الآتي إلينا عبر الزمن؛ سأضطر إلى إدخالك البيمارستان حيث سأقوم بإخراج البول بالقشاطر ثم نرى أمر الحصى.

ما إن انتهى من قوله هذا وبدأ يكتب في الأوراق، حتى جاء بعض الغلمان وأخذوني -بعد أن قيدوا اسمي وبياناتي، وأخذوا حاجياتي وملابسي وأودعوها الأمانات- إلى الحمام وألبسوني ملابس نظيفة، ومنه أخذوني إلى قاعة كبيرة نظيفة جيدة الإضاءة عن طريق أشعة الشمس الداخلة من خلال نوافذ كبيرة وأقعدوني على كرسي، وبعد قليل أتى الزهراوي ومعه شاب، يظهر أنه تلميذه وأتوا بالآلة المسماة قشاطر وقبل أن يبدؤوا تخوفت من العدوى فسألتهم: هل هي نظيفة؟ ابتسم الزهراوي وقال: لا تخف يا ابن الزمان المتقدم يا ابن زمن البكتيريا، ففي زماننا لم نكن قد اكتشفناها بعد، ولكنني أغسل آلاتي التي أستخدمها بمادة الصفراء^(٦) وأعتقد أن طب زمانكم قد أثبت أن المادة الصفراء تقلل من وجود البكتيريا.

فابتسمت وقلت له: سيدي الجراح الكبير، هل من الممكن أن تشرح ما تقوم به من خطوات أثناء العملية، لأدونها لأبناء عصري فيعلمون فضلكم؟

أجاب الزهراوي قائلاً: على الرحب والسعة حيث أنني سأقوم بشرح ذلك لتلميذي الذي معي.

سأصف لك أولاً الآلة التي سأستعملها والمسماة قثاطير، وهي:

"تصنع من الفضة وتكون دقيقة ملساء مجوفة كأنبوب ريش الطير في رقة الميل، طويلة في نحو شبر ونصف، ولها قمع لطيف في آخرها وهو رأسها. ووجه جذب البول بها، أن تأخذ خيطاً متيناً وتربط في طرفه صوفة أو قطنة ربطاً جيداً، وتدخل طرف الخيط في أسفل القثاطير، وتقرض بالمقرض إن فضل شيء من الصوفة، لكي تدخل في الأنبوبة، تسده كالزر. ثم تدهن القثاطير بزيت أو بزبد أو بياض البيض".

ثم قام الزهراوي بدهنه بالزيت وأتى نحوي وأنا جالس على الكرسي. وأستمر يشرح لتلميذه وهو يفعل ما يقول: "وتجلس العليل على الكرسي وتطل مثناته وإحليله بالأدهان الرطبة، أو الزيت والماء الفاتر. ثم تدخل القثاطير في الإحليل برفق، حتى يصل إلى أصل الإحليل. ثم تشي الإحليل فوق إلى ناحية السرة، ثم تدفع القثاطير إلى داخل حتى إذا وصل قريباً من المقعدة، تميل الذكر إلى أسفل والقثاطير في داخله، ثم تدفعه حتى يصل إلى المثانة ويحس بها العليل..."

ما قال ذلك حتى أحسست به فعلاً وقلت: نعم كما تصف أيها الطبيب. ابتسم الزهراوي واستمر بالفعل والقول: "...قد وصل إلى شيء فارغ. وإنما يضع

على هذه الرتبة لأن المجرى الطبيعي الذي يسلكه فيه تعريج. ثم تجذب الخيط بالصوفة قليلاً فإن البول يتبع الصوفة ثم تخرجها^(٧٠). وما إن فعل ذلك، حتى اندفع البول، وأحسست بالراحة وقمت وقبّلت رأسه وشكرته على صنيعه. قال الزهراوي: لم تنته بعد، فإن الحصة لا تزال في المثانة، فإذا لم تنزل خلال اليومين القادمين، فإنني سأقوم بإخراجها باليد والشق أقصد جراحياً. وإن كانت عظيمة جداً؛ فإنه جهل أن أشق عليها شقاً عظيماً، لأنه يعرض أحد أمرين إما أن تهلك وإما أن يحدث لك تقطير البول دائماً "وإنما عند ذلك أقوم في كسرهما بالكلايب"^(٧١).

وعندما رأى فزعي طمأنني وقال: لا تخف، لن تخرج إلا وأنت صحيح معافى، بإذن الله. ثم أخذ يكتب في البطاقة، التي كانت معي عندما أدخلوني البيمارستان.

واستمرّ الصديق الرابع في الرواية: ثم جاء الغلمان، وقادوني إلى قاعة الجراحة وأشاروا إلى سريرى، فاضجعت عليه، وأنا أدعو الله أن تخرج الحصة. وكان وصف القاعة التي كنت بها، وحال الأسرة وترتيبها بمثل ما وصف صديقنا الثالث القاعة التي كان هو بها، من نظافة وترتيب.

وفي المساء حضر الطبيب المناوب واطمأن عليّ، كما على بقية المرضى في القاعة، وذهب. وبعد ذهابه بقليل، أحسست بحاجتي إلى الحمام، فذهبت وهناك خرجت الحصة فحمدت الله على ذلك.

وفي الصباح بعد الإفطار الشهي، جاءني الجراح الكبير الزهراوي مع أطبائه وتلاميذه، وفرح كثيراً عندما علم بخروج الحصاة. وسألني إن كنت أشعر بأي ألم؟ فأجبتة بالإيجاب. فطلب قارورة بولي، ونظر إليها وقال: يظهر أن هناك بعض الدم في المثانة قد يكون قد تجمد فيها، لذا سأقطر فيها المياه والأدوية باستعمال الزرقة. وما إن انتهى من ذلك حتى أخذوني إلى القاعة التي كنت بها بالأمس. وبعد قليل أتى الزهراوي مع بعض تلاميذه وقال: يا بني، يا ابن الزمان اللاحق اعلم أنكم في زمانكم، تودون أن تعرفوا كل شيء عن أي شيء لذا سأقوم بشرح ما عمله ووصف ما أستعمله. فسأقوم باستعمال الزرقة في حقن بعض الماء والأدوية أي بعض الرطوبات في مثانتك. والزرقة^(٧٢):

" تصنع من فضة أو من عاج، مجوفة لها أنبوب طويلة، على رقة الميل، مجوفة كلها، إلا الطرف، فإنه مصمت قليلاً، فيه ثلاثة ثقوب، اثنان في جهة، وواحد من جهة أخرى كما ترى. والموضع الأجوف الذي فيه المدفع يكون على قدر ما يسده، بلا مزيد، حتى إذا جذبت به شيئاً من الرطوبات، انجذبت، وإذا دفعت به، اندفعت إلى بعد..."^(٧٣).

واستمر بالفعل والقول: "... فإن أردت طرح الرطوبات في المثانة، أدخلت طرف الزرقة في الرطوبة وجذبت بالمدفع إلى فوق، فإن الرطوبة تنجذب في جوف الزرقة، ثم تدخل طرفها في الإحليل، على حسب ما وصفنا في القناطر. ثم تدفع الرطوبة بالمدفع. فإن تلك الرطوبة تصل إلى المثانة..."^(٧٤). وما إن انتهى من ذلك حتى أحسست بضغط في مثانتي.

قال الزهراوي: الآن ستعود إلى قاعتك. وغداً صباحاً بإذنه تعالى ستغادر البيمارستان بعد أن نتفقدك. شكرته على ذلك. وعدت إلى القاعة. وبعد أن استرحت قليلاً، ذهبت إلى الحمام فأفرغت مثانتي وشعرت بارتياح.

خرجت إلى الحديقة الملحقة بالبيمارستان بقصد التريض، ووجدتها حديقة غناء بها أشجار فاكهة، وفي طرف منها، كانت هناك مساحة كبيرة مزروعة بنباتات وأعشاب، تعرفت على البعض منها، ولكن أكثريتها لم أعرفها، فسألت شيخاً كان واقفاً بقربها، وأنا أشير نحوها، ما هذا؟ فأجاب: إنها منطقة الأعشاب والنباتات الطبية^(٧٥)، التي نستعملها في الصيدلية لدينا، هذه التي تنبت في مناخنا، أما التي يصعب نبتتها لدينا؛ نجلبها من الخارج.

وفي طرف آخر من الحديقة وجدت بعض المرضى، يجلسون في هدوء، وهم يستمعون إلى أنغام شجية، تسلت إلى أذني فأحسست بالراحة وهدوء الأعصاب، فسألت غلاماً، ما هذا؟ قال: ألا تعلم عن "تأثيرات اللحن الموسيقية في النفوس الحيوانية"^(٧٦)؟ أولاً تعلم أن ابن سينا والرازي والفارابي والحسن بن الهيثم نصحوا بهذا؟ قلت له: علمت بعد تعجب من جهل عرب زماننا عن علم وتقدم عرب زمانكم، فأرجو المعذرة.

وعدت إلى القاعة، إلى سريري وأنا أتحسر على عرب زماننا، وأخلدت إلى النوم، وفي الفجر استيقظت، فتوضأت، وصليت الفجر، بعد ذلك تناولت فطوري ممّا لذ وطاب.

بعدها أتى الزهراوي في مروره اليومي، مع أطبائه وتلاميذه. وسألني عن حالي فأجبتته بأني في أحسن حال، فهم بوداعي، فرجوته قائلاً: أيها الشيخ والجراح العظيم، هل أعطيتني نبذة عنك وعن أعمالك، لأبلغ أهل زماني الذين جهلوك؟ والذين أنكروك؟ أجاب كما تحب يا بني وسأكون مختصراً وأعطيك أهم ما قمت به فبكل تواضع ستحتاج إلى مجلدات إذا ذكرت لك جميع ما قمت به:

أنا أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي الأنصاري، يرجع نسبي إلى الأنصار وبالتالي إلى المدينة المنورة. ولدت عام خمسة وعشرين وثلاثمائة من الهجرة، في مدينة قرب قرطبة ذات الخمسين بيمارستاناً. وسأعطيك نبذة عن بعض الأدوات الجراحية التي طورتها: (٧٧)

- استعمال الحرير على هيئة خيوط للربط في العمليات الجراحية.
- تعليم تلاميذي كيفية تخطيط الجروح بشكل داخلي لا يترك شيئاً مرئياً فيها.
- تدريب طلابي، على كيفية التخطيط بإبرتين وخط واحد مثبت بهما.
- أول من استعملت الآلة الخاصة (السنانير) لاستئصال الزوائد اللحمية من الأنف.

- أول من وصف محقنة شرجية، مربوط عليها جلدة لحقن الأطفال.
- استعملت المحقنة المعدنية (الزراقة) لحقن المحاليل الطبية في المثانة.

- استعملت آلة خافضة للسان، لكبس اللسان أثناء إجراء عملية اللوزتين.
- علمت تلاميذي، التدوير المثلث (نسبة إلى ثمانية) في جراحات البطن، واستعملت الخيطان المستخرجة من أمعاء القطط في جراحات الأمعاء.
- بالإضافة إلى أنني وصفت وقمت بإزالة خراجات الكبد جراحياً، ووصفت كيفية قرح الماء النازل من العين ما تسمونه إزالة الكتاركت، وأعلمك يا بني أن الكتاركت من أصل عربي تعني (قطرات الماء)، ووصفت عمليات في الفك والأسنان، كما وصفت عمليات استئصال سرطان الثدي وغيرها كثير من العمليات بما فيها العمليات النسائية وإخراج الجنين الميت بالكلايب، غير ما وصفته من أنواع الكي ومتى يستعمل وكيف يجب أن يكون ووضعت وصفا لجبر كل أنواع الكسور تقريباً.
- بعد أن انتهى وودعني؛ ذهب واختفى عن ناظري ولكن خياله بقي يخاطب ضميري قائلاً: ما أروع ما قدمنا نحن الأجداد للبشرية، ولكن إضاعة الأبناء لموروث الأجداد أضاع الأحفاد.
- المهم أنهم أعادوا إلي حوائجي من أمين الممارستان، وأعطوني أوراق ومبلغاً من الدنانير كما أعطوك أيها الصديق الثالث لنفقتي كما قالوا. وهأنذا بينكم أروي لكم قصتي.
- جاء الصديق الخامس يعرج، وهو يتكأ على عكاز و فخذ الأيمن مجبر. وبدأ يسرد حكايته وقال: أيها الأصدقاء الأعزاء، أتيت إليكم لأودعكم، حيث أنني قررت أن أكمل علاجي هنا، ثم أعود إلى زماننا عند شفائي بإذن الله.

صاح بقية الأصدقاء: ماذا؟ ماذا أصاب عقلك؟ أتود تكملة العلاج هنا وأنت تعلم أن العلاج في زماننا أفضل سواء كان تدخلاً جراحياً أو تدخلاً علاجياً؟ ماذا تفعل إذا تلوث جرحك؛ وليس لديهم مضادات حيوية؟

ابتسم الصديق الخامس، وبهدوء غريب عن طبيعه لم يتعودوه منه، وأجاب: إنني أقر بأن طب زماننا أفضل في العلاج، فالفاصل ألف عام من التطور، منها مئتا عام من الثورة الطبية التي قادت إلى هذا التقدم المذهل في طرق التشخيص والعلاج.

وثقوا لو أنه هناك خطر أي خطر على ساقي لما بقيت دقيقة واحدة، ولكن ما وجدته من طريقة تجبير الكسر وعلاج الجرح ما طمأنني، وخاصة أن الكسر غير مضاعف وطريقة علاجهم للجرح سليمة. فالطبيب المشرف على حالتي علمت منه، بأنه تلميذ لأبي القاسم الزهراوي فيما يخص التجبير، لذا فقد استعمل طريقته في تجبير الكسر مع الجرح. فقد أعاد العظم إلى مكانه بكل دقة باستعمال جهاز خاص، ولم يقم بالتجبير إلا بعد تأكده بأن العظم في مكانه، وبأنه لا يوجد ورم في الفخذ. وبعد أن قام بالتجبير، فتح نافذة فوق الجرح^(٧٨) ليباشر معالجة الجرح وقد استعمل فيها طريقة ابن سينا في معالجة الجروح، فقبله كان الأطباء يعالجون الجروح بطريقة متوارثة من عهد أبقراط، تقوم على فكرة تقول بأن تقيح الجروح، ما هو إلا عملية طبيعية مرغوب فيها جداً، يسعى الطبيب إلى دعمها إن لم يعمل على إحداثها بنفسه، وذلك لعملية التطهير التي يقوم بها الجسم. فجاء ابن سينا وناقض أبقراط؛ ومن كان يستطيع أن يناقضه

أو يخالفه؟ بنظرية الجروح النظيفة الخالصة من القيح (٧٩)، ولهذا السبب كان الطبيب المشرف يستعمل اللزوقات الساخنة مع الكحول القوي في مباشرته للجرح، ثم قام بربط اللفائف عليه.

استمر الصديق الخامس في روايته، والأصدقاء ينظرون إليه بدهشة، قائلاً: اطمئنوا أيها الأصدقاء فإن شاء الله بعد عدة أسابيع سيقومون بفك الجبيرة وعندها سأعود إليكم إلى زماننا معافى بإذنه تعالى. وإذا كان خوفكم من أن يفسد الجرح، ولا يوجد في هذا الزمان مضادات حيوية لعلاج، أو لتناولها للوقاية من أي فساد عن طريق البكتيريا، فأود أن أعلمكم: أنه في زماننا يصفون المضادات الحيوية عند الحاجة إليها للقضاء على البكتيريا المسببة للمرض وغالباً ما يتم ذلك بإضعافها ثم يقوم الجهاز المناعي للإنسان بالقضاء عليها فعلياً، ففي زماننا كما تعلمون ظهر مرض نقص المناعة المكتسب (الإيدز) وهو يتسبب من فيروس يقوم بمهاجمة القوى الدفاعية للجسم ومراكز القيادة والسيطرة المتحكمة فيها، ويحطمها وبذلك يحطم الجهاز المناعي للمريض، فتكتسح بكتيريا الأمراض المختلفة جسمه بل تتحول البكتيريا الوديدة المفيدة الموجودة فيه إلى وحوش كاسرة، وعندها لا يفيد استعمال المضادات الحيوية. ما أود قوله يا أصدقائي لكم: إن الجهاز المناعي هو أساس مقاومة الجسم "للميكروبات" إن قوى قوى الجسم، وإن ضعف ضعف الجسم. كما نعلم أن الروح المعنوية والناحية النفسية تلعب دوراً كبيراً في تقوية الجهاز المناعي.

وصحيح أن عرب الزمان الذي نحن فيه الآن، لم يتعرفوا بعد على المضادات

الحيوية، ولذا فهي غير موجودة في بيمارستاناتهم، ولكن ما وفروه لمرضاهم من راحة نفسية وجسدية يتلمسها المريض بكل حاسة من حواسه، إن ما لاحظناه أثناء تواجدها هنا وما قرأته في جميع الكتب التي أرخت لهذه الحقبة من وصف لبيمارستانات العرب من جمال الموقع وهندسة البناء سواء من الخارج أو الداخل، ألم تلاحظوا هذه النوافير المتناثرة في نظام بديع وهذا الفرش الوثير، والمياه الجارية والحمامات الساخنة، وهذا الطعام الذي لا يختلف عن طعام القصور، وهذه الموسيقى المنبعثة المريحة للنفس المنبعثة من قاعات النقاهاة^(٨٠) والحكاوية" بقصصهم لتسلية المرضى^(٨١) وإنسانية الأطباء ومعاونيهم وأدبهم ومعاملتهم للمرضى كإنسان كامل وليس كعضو من أعضاء الجسم؟ وهذه الحداثق بأشجارها المتناسقة وطرقها البديعة. إنني وأنا آتي إليكم، سمعت صوتا جميلا يتلو آيات من القرآن الكريم آتية من المسجد فذهبت، ولم يكن الوقت وقت صلاة، فسألت، فقالوا لي: هذا أحد المقرئين المكلفين بقراءة القرآن طوال الليل والنهار وعددهم خمسون مقرأً يتناوبون على ذلك^(٨٢).

ومن المؤكد أن كل هذا سيؤدي في النهاية إلى رفع الروح المعنوية للمريض وبالتالي إلى تقوية جهازه المناعي. أعتقدون بعد هذا أنني سأحتاج إلى مضادات حيوية للوقاية؟

صحيح إن العرب لم يتعرفوا في ذلك الزمن على المضادات الحيوية، ولكنهم علموا أن الروح تقوي الجسد في مقاومة المرض والنقاهاة منه. واعتقادي أن هذا الذي قد يبدو فيه بعض البذخ والإسراف في الصرف على البيمارستانات، ليس

هدفه التباهي كما يتبادر إلى الذهن فيكون بذلك سفه؛ وإنما لرفع الروح المعنوية للمريض وإراحة نفسه وبذلك يقوى الجسم في مقاومة المرض. هذا اعتقادي يا أصدقائي قد يكون على صواب وقد يكون على خطأ. أتركوني هنا إلى أن يشفى ساقى بإذن الله وأستمتع بكرم وضيافة الذين سادوا العالم بعلمهم وجدهم وكرم أخلاقهم، ولأتعلم منهم، فقد يفيدني الماضي في تقييم الحاضر للتخطيط للمستقبل.

هكذا عزيزي القارئ انتهت قصة أصدقائك الخمس ونحمد الله على رجوعهم بالسلامة ولنرجع نحن ونحلل ما ورد في روايتهم، فهي إن كانت خيالية في وقائعها وسردها إلا أنها واقعية في مصادرها ومراجعتها.

تنظيم البيمارستانات الثابتة

إنشاء بيمارستان جديد:

أول ما يتبادر إلى الذهن بهذا الشأن السؤال التالي: من كان يمول تكاليف الإنشاء وتكاليف التشغيل؟ ولماذا؟

ولنبداً الإجابة عن "لماذا؟": إنه من نافلة القول أن نقول أن المجتمع الإسلامي قام على التعاليم الإسلامية وبالتالي على التكافل والتعاضد والعدل والتقرب إلى الله بمساعدة الغني للفقير والمحتاج بدون منة، وأحسن إجابة على هذا السؤال نجدها في وقفية الملك المنصور قلاوون للبيمارستان المنصوري عندما قال: "وهذا السعي يرجو مولانا السلطان الملك المنصوري - خلد الله ملكه - به من ربه قبوله فقد قال ﷺ فيما ورد عنه من الأخبار الصحيحة المنقولة: إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" (٨٣).

تمويل مشاريع بناء البيمارستانات وتشغيلها:

نأتي للإجابة على السؤال الرئيس: من كان يمول هذه المشاريع الضخمة؟

١- الدولة عن طريق بيت المال:

فقد مر معنا أمر الوزير علي بن عيسى الجراح إلى سنان بن ثابت بإرسال

الفرق الطبية إلى السجون، والبيمارستانات المتنقلة إلى المناطق النائية. كما نجد ضمن ما نصح به طاهر بن الحسين (الوزير والقائد العسكري الكبير في زمن الخليفة العباسي المأمون) ابنه عبدالله عندما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما: ما يبين أن الدولة في بعض الأحيان كانت تتولى بناء البيمارستانات، والصرف عليها من بيت المال حيث قال: "... وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم وقوَّاماً يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال..."^(٨٤).

٢- الخلفاء والسلطين والأمراء والوزراء من مآلهم الخاص:

مثل:

- البيمارستان المقتدري ببغداد الذي أنشأه الخليفة المقتدر بالله بنصيحة من رئيس أطبائه سنان بن ثابت.

- البيمارستان الصلاحي الذي أنشأه السلطان صلاح الدين الأيوبي بالقاهرة.

- البيمارستان النوري الذي بناه نور الدين بن زنكي في دمشق وآخر في حلب.

- البيمارستان المنصوري أعظم البيمارستانات العربية الإسلامية الذي بناه السلطان الملك المنصور قلاوون.

٣- الأثرياء؛

كثير من بيمارستانات تلك العصور قام بإنشائها والصرف عليها أثرياء المجتمع العربي الإسلامي. ولكي نتصور مدى الترابط الاجتماعي بين الغني والفقير في هذا المجتمع؛ علينا أن نعلم أنه في بغداد وحدها وجد في سنة ألف ومائة وستين ميلادية ما يربو على ستين بيمارستاناً. وفي قرطبة ما يربو على خمسين بيمارستاناً^(٨٥).

- بيمارستان بدر في بغداد أنشأه بدر أبو النجم مولى المعتضد.

- بيمارستان السيدة ببغداد على نفقة السيدة أم المقتدر.

قال ثابت بن سنان: "إنه لما كان في أول يوم من المحرم سنة ست وثلاثمئة فتح والدي سنان بن ثابت بيمارستان السيدة الذي اتخذه لها بسوق يحيى، وجلس فيه ورتب المتطبين وقبل المرضى، وهو كان بناه على دجلة، وكانت النفقة عليه في كل شهر ستمئة دينار"^(٨٦).

عمارة البيمارستان؛

عندما يقرر أحد الأشخاص السابق ذكرهم بناء بيمارستان فإنه يوكل أحد الأشخاص بالإشراف العام على العمارة والتأثيث، مثلما فعل هارون الرشيد عندما أمر جبريل بن بختيشوع بإنشاء بيمارستان الرشيد في بغداد، وكما فعلت أم المقتدر عندما اختارت سنان بن ثابت، وكما فعل أيضا الملك المنصور قلاوون عندما اختار علم الدين سنجر الشجاعي لمباشرة عمارة البيمارستان المنصوري بالقاهرة^(٨٧).

ولقد تطورت عمارة البيمارستانات خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية، فبين عمارة بيمارستان الرشيد ببغداد وعمارة أرقى وأعظم بيمارستان في الإسلام ألا وهو البيمارستان المنصوري بالقاهرة عدة قرون من التطور والرقى الحضاري والمعماري. وعبر هذه العصور تطور نظام معماري ميز هذه البيمارستانات الإسلامية وطبعها بطابع خاص نستطيع أن نلخصه بالآتي:

١- اختيار الموقع؛

اختيار الموقع الذي سيبنى فيه البيمارستان من الأمور التي أولاها العرب اهتماما كبيرا عند بناء بيمارستاناتهم، حيث كان يجب أن يتمتع بهواء صحي، وقد مر معنا كيف أن الرازي عندما أراد اختيار موقع للبيمارستان العضدي وضع قطعاً من اللحم في أماكن مختلفة من بغداد، واختار الموقع الذي بقيت فيه قطعة اللحم سليمة أكثر من غيرها في المواقع الأخرى. ونفس القصة تكررت عندما أنشئ البيمارستان النوري في حلب حيث أحضروا خروفا وقطعوه أربعة أرباع وعلقوها بأرباع المدينة ليلا فلما أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الذي كان في هذا القطر فبنوا البيمارستان فيه^(٨٨).

كان الموقع يختار أيضا قريبا من الأنهار أو منابع المياه. فالمستشفى العضدي كان الماء يدخل إليه من دجلة، والمستشفى النوري بحلب كان به بركتا ماء يأتي إليهما الماء الحلو من قناة حبلان. وبيمارستان غرناطة له باحة داخلية في وسطها حوض عميق لقبول الماء من عينين كل عين عبارة عن أسد جاث^(٨٩) وبهذه الطريقة كانوا يضمنون:

٢- إيصال الماء؛

كان اهتمامهم في اختيار الموقع بقرب الأنهار ومنابع المياه يرجع إلى حرصهم إلى إيصال الماء الجاري إلى بيمارستاناتهم؛ بل في بعض الأحيان إلى جميع عنابر المرضى كما كان الحال في بيمارستان مراکش حيث أجريت فيه مياه كثيرة تدور على جميع البيوت (العنابر) زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض^(٩٠).

٣- مخطط البيمارستان؛

بغض النظر عن سعة البيمارستان فقد يختلف من بيمارستان إلى آخر ومقدار الزخرفة ومساحة الحدائق الملحقة وعدد النوافير الذي قد يختلف أيضا؛ فإن البيمارستانات العربية الإسلامية كان لها مخطط أساسي يحتوي على:

أ - أقسام خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء مفصولة عن الأولى.

ب - عنابر (قاعات) مرضى حسب التخصصات فهناك عنابر مخصصة للمرضى المصابين بالحمى والأخرى للأمراض العقلية والنفسية وغيرها لمرضى الرمد وهكذا. فمثلا البيمارستان المنصوري كان يحتوي على أربعة عنابر للمرضى بالحميات وعنبر للرمد، وعنبر للجرحى، وعنبر لمن أفرط به الإسهال وعنبر للنساء وعنبر للممرورين (الأمراض العصبية والنفسية) من الرجال ومثله للنساء.

ج - عنابر مفصولة للناقهين من المرض إلى أن يشفوا، تعزف لهم فيها الألحان وتحكى لهم الحكايات المسلية.

د - غرف للأطباء للكشف على المرضى غير المنومين (العيادات الخارجية).

هـ - غرف لرئيس الأطباء وبقية الإداريين.

و - قاعة محاضرات يلقي فيها رئيس الأطباء دروسه ويجتمع بها مع تلاميذه.

ز - مكتبة.

ح - مطبخ لطبخ الأغذية الصحية حيث كان الغذاء أحد طرق العلاج الرئيسية وكذلك لطبخ الأشربة وغيرها من المواد العلاجية.

ط - صيدلية لتحضير الأدوية^(٩١).

ي - مخازن.

ك - قاعة لغسل الموتى.

ل - مصلى (مسجد).

م - مراحيض وحمامات.

بالإضافة إلى الباحات والأفنية والحدائق التي تحتوي على الأشجار والشمومات والمأكولات. وكثير من هذه الممارسات كانت تحتوي على سكن للعاملين فيها.

تأثيث البيمارستان وتمويله بالأدوات والمواد اللازمة

عندما تنتهي عمارة البيمارستان يقوم ناظره (وهذه الوظيفة سنتحدث عنها بالتفصيل عند الحديث عن التنظيم الإداري) بتأثيثه بما يحتاج إليه لإيواء المرضى ومعالجتهم والعناية بهم. وقد يختلف الأثاث من بيمارستان إلى بيمارستان من حيث الفخامة ولكنها اتفقت جميعها على توفير سرير بكامل تجهيزاته لكل مريض، بالإضافة إلى الأدوات الطبية اللازمة لكل تخصص، وأدوات تحضير العقاقير وتحضير الأغذية للمرضى المنومين.

فهذا ابن جبير الرحالة الأندلسي يصف البيمارستان الصلاحي في القاهرة (البيمارستان العتيق): "ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى"^(٩٢).

ومن وقفية السلطان الملك المنصور قلاوون للبيمارستان المنصوري: "ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ثمن ما تدعو حاجة المرضى إليه، من سرير حديد أو خشب على ما يراه مصلحته ولحف محشوة قطنا وطراريح محشوة بالقطن أيضا... ثمن سكر يصنعه أشربة مختلفة الأنواع، ومعاجين وثمر ما يحتاج إليه لأجل ذلك من الفواكه والخماير، رسم الأشربة وثمر ما يحتاج إليه من أصناف الأدوية والمعاجين والعقاقير والمراهم والأكحال والشيافات والذرورات والأدهان والسفوفات والدرياقات والأقراص"^(٩٣).

وقال عبد الواحد المراكشي في وصف بيمارستان مراكش: "ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره مما يزيد عن الوصف ويأتي فوق النعت... وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء"^(٩٤).

وقال العيني في عقد الجمان وهو يصف إعادة صيانة وتأثيث البيمارستان العضدي:

"وأقام الفرش واللحف للمرضى،...، وكان فيه عدة جباب فيها السكر الطبرزد والابلوج واللوز والمشمش والخشخاش وسائر الحبوب والبراني الصينية فيها العقاقير وأربع قواصر فيها الاهليلج الأصفر والكابلي والهندي وأربع قواصر تمر هندي وزنجبيل وعود وند ومسك وعنبر والرواند الصيني في البراني والترياق الفاروقي وجميع الافاويه وصناديق فيها أكفان وقذور كبار وصغار وآلات وأربعة وعشرون فراشاً"^(٩٥).

تعيين الأطباء والعاملين في البيمارستان

تعيين الأطباء:

يتم في كثير من الأحيان تعيين الأطباء في البيمارستان من قبل صاحب الوقف كما فعل عضد الدولة عندما قام بتعيين أربعة وعشرين طبيباً لبيمارستانه^(٩٦).

أو قد يوكل صاحب الوقف أحد الأشخاص المختصين للقيام بالمهمة كما فعل هارون الرشيد عندما أمر جبريل بن بختيشوع بإنشاء بيمارستان الرشيد وتعيين الأطباء فيه^(٩٧)، وكما فعلت صاحبة بيمارستان السيدة ببغداد عندما وكلت سنان بن ثابت الذي جلس فيه ورتب المتطبيين^(٩٨).

ثم تطور الأمر فصار تعيين الأطباء في البيمارستان من صلاحيات ناظر البيمارستان. فقد ورد في وقفية البيمارستان المنصوري النص التالي: "ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا البيمارستان من الأطباء المسلمين الطبائعين والكحالين والجرائحين..."^(٩٩).

بقية العاملين في البيمارستان يتم تعيينهم من قبل ناظر البيمارستان.

النظام الإداري وإجراءات العمل في البيمارستانات

خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية

عندما يطلع شخص ما على الموروث الحضاري العربي الإسلامي في المجال الصحي يصاب بصدمة حضارية قد تقرب من الصدمة الحضارية التي يصاب بها ابن الأدغال عند انتقاله إلى مدينة غربية حديثة.

ومقدار هذه الصدمة يتناسب طرديا بمدى تأثر هذا الشخص "ألمًا" بالثقافة الغربية ومدى اعتقاده بأن الحضارة بدأت عند الغرب وانتهت عندهم. وكلما تعمق في اطلاعه على هذا الموروث؛ يزداد اندهاشه وانبهاره، وقد يغير كثيرا من مسلماته التي رسخت في ذهنه بتأثير الإعلام إن لم نقل الثقافة الغربية في جانبها المفضل. وهذا الشخص بصفته ابن هذا العصر وابن الثقافة السائدة فيه لا يكفيه أن يعلم فقط عن الإنجازات والإيجابيات التي توصلت إليها الحضارة العربية الإسلامية، فهو يعلم أن التخطيط والتنظيم أساس أي تطور، وهو عندما يرى هذا التطور الهائل الذي كان سائدا عند العرب في تلك العصور في إنشاء وتعمير وتشغيل البيمارستانات؛ يجزم بأن وراء ذلك تخطيط محكم وتنظيم دقيق، فيبحث عنه، وقد يطلع على وقفية أحد هذه البيمارستانات كوقفية السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري أو وقفية الأمير عبد الرحمن كتحدا على نفس البيمارستان ، أو وقفية نور الدين زنكي على البيمارستان النوري بدمشق؛ عندها تزول عنه دهشته لأنه يكون قد وصل إلى أحد أسرار ذلك

التطور الرائع الذي وصلت إليه البيمارستانات في تلك الحقبة. وقد تزداد دهشته عندما يطلع على هذا الرقي في التنظيم الإداري وإجراءات العمل الذي وصلوا إليه خاصة إذا كان هذا الشخص طبيباً أو له علاقة بالإدارة الصحية. فهذه الوقفيات لا نستطيع أن نعتبرها مجرد نصوص جامدة تحصر ما أوقفه صاحب الوقف وسبل صرفها بل مخطط عمل ومنهاج تنظيم لمشاريع ضخمة لا يُترك شيء فيها للصدفة أو الاجتهاد الاعتباطي، بل كل شاردة وواردة مذكورة فيه، والشخص القارئ لهذه الوقفيات يشعر وهو يقرأها (إذا تغاضى عن الأسلوب)، أنه يقرأ نظم وإجراءات العمل لأحد المستشفيات الحديثة. فإذا أخذنا وقفية السلطان الملك المنصور قلاوون على البيمارستان المنصوري في القاهرة كمثال وجدنا فيها بدون مبالغة في التأويل:

الغاية من بناء البيمارستان: (THE MISSION)

حيث يقول: "وهذا البيمارستان هو الذي وقفه مولانا السلطان الملك المنصور الموكل الموقوف عنه -خلد الله ملكه- بيمارستاناً لمداداة مرضى المسلمين الرجال والنساء من الأغنياء المثرين والفقراء المحتاجين" (١٠٠).

أهداف المشروع: (OBJECTIVES)

١- تقديم الخدمات الطبية والتمريضية لقاطني القاهرة وضواحيها من المسلمين.

٢- أن يكون هذا البيمارستان بيمارستاناً عاماً يحتوي على جميع التخصصات الطبية.

٣- أن يكون هذا البيمارستان مدرسة عليا لتدريس الطب والبحث العلمي في مجال الطب.

٤- أن يكون هذا البيمارستان محل إقامة للمرضى المحتاجين إليه لحين برئهم وشفائهم.

٥- جميع الخدمات التي تقدم في هذا البيمارستان للمرضى تكون مجانية بدون مقابل.

نصوص من وقفية البيمارستان المنصوري استخرجت منها هذه الأهداف:

"لداواة مرضى المسلمين... بالقاهرة وضواحيها من المقيمين بها والواردين إليها من البلاد والأعمال على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وتباين أمراضهم وأوصابهم، من أمراض الأجسام قلّت أو كثرت اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التي حفظها أعظم المقاصد والأغراض... والانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به، يدخلونه جموعا ووحدا... يقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لداواتهم إلى حين برئهم وشفائهم... من غير اشتراط لعوض من الأعواض ولا تعريض بإنكار على ذلك" (١٠١).

نظم وإجراءات العمل في أحد البيمارستانات العربية الإسلامية

عزيزي القارئ ليزداد تعرفنا على بيمارستانات تلك العصور ونتفهم النظم الصحية والإدارية والفنية التي طبقت فيها، لنقم سويا بوضع نظم وإجراءات العمل بأحد هذه البيمارستانات وليكن منهجنا في ذلك هو نفس المنهج الذي استخدمناه في الفصل السادس/الباب الثاني من هذا الكتاب عندما وضعنا "نظام ممارسة صناعة الطب" في تلك العصور، أي أن نستعمل الأسلوب الحديث في وضع النظم على شريطة أن لا نأتي بشيء من عندنا بل الاعتماد كله يكون على نصوص وصلتنا من تلك المرحلة. وليكن اعتمادنا الأول على نص وقفية البيمارستان المنصوري فهذا النص وصل إلينا شبه كامل إلى جانب بعض النصوص الأخرى التي سننوه عنها في حينه.

المادة الأولى: التعريف والغاية والأهداف:

١-١- اسم البيمارستان:

بيمارستان (ما) في أحد مدن الإسلام العامرة الواقعة بين حدود الصين وحدود بلاد الغال.

١-٢- الغاية من إنشائه:

تقديم الخدمات العلاجية والتمريضية للمرضى المحتاجين لهذه الخدمات.
(انظر ما كتب عن الغاية في الصفحات السابقة).

٣-١- أهداف البيمارستان:

١-٣-١- تقديم الخدمة العلاجية لسكان المدينة وضواحيها على أعلى مستوى لإدخال السرور إلى المريض الفقير وإيصال الحبور إلى قلبه الكسير.

نضيف هنا إلى ما كتبناه في الصفحات السابقة: "لا يخفى ما فيها من إدخال السرور على المريض الفقير، وإيصال الحبور إلى قلبه الكسير، وإغنائه بإيوائه ومداواته"^(١٠٢).

٢-٣-١- أن يكون هذا البيمارستان بيمارستانا عاما يحتوي على جميع التخصصات الطبية.

٣-٣-١- أن يكون هذا البيمارستان مدرسة عليا لتدريس الطب والبحث العلمي في مجال الطب.

٤-٣-١- أن يكون هذا البيمارستان محل إقامة للمرضى المحتاجين إليه لحين برئهم وشفائهم.

٥-٣-١- جميع الخدمات التي تقدم في هذا البيمارستان للمرضى تكون مجانية بدون مقابل.

(يمكن الرجوع إلى الصفحات السابقة للتعرف على النصوص التي استخرجت منها هذه الأهداف).

المادة الثانية: أحقية العلاج؛

١-٢: أحقية العلاج في هذا البيمارستان للبعيد والقريب والأهلي والغريب والقوي والضعيف، والدني والشريف، والعلي والحقير، والغني والفقير، والمأمور والأمير، والأعمى والبصير، والمفضول والفاضل، والمشهور والخامل، والرفيع والوضيع، والمترف والصعلوك، والمليك والمملوك^(١٠٣).

المادة الثالثة: إدارة البيمارستان؛

١-٣: ناظر البيمارستان:

١-١-٣: الجهة الإدارية العليا المسؤولة عن الشؤون الإدارية والمالية في البيمارستان هو ناظر البيمارستان. يرجع إليه جميع الموظفين والعاملين في البيمارستان فيما يخص هذه الأمور.

٢-١-٣: تعيين ناظر البيمارستان:

يتم تعيين ناظر البيمارستان من قبل صاحب الوقف.

في البيمارستانات الموقوفة من قبل الخلفاء والسلطين فإن تعيين الناظر يتم من قبلهم أو من نوابهم في الولايات.

كتب القلقشندي في صبح الأعشى يعرف وظيفة "النظر" على وجه العموم: "وموضوعه التحدث في أمور خاصة بإباحة ضروراتها، وعمل مصالحها، واستخراج متحصل جهاتها، وصرفه على الوجه المعتبر، وما يجري مجرى ذلك"^(١٠٤).

ويقول أيضاً عن أرباب الوظائف الدينية من لا مجلس له بالحضرة السلطانية: "ومنها (نظر البيمارستان) والمراد البيمارستان المنصوري الذي أنشأه المنصور قلاوون... وهي من أجل الوظائف وأعلاها؛ وعادة النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصرية"^(١٠٥).

وقوله: "ومنها (نظر البيمارستان) وقد تقدم في الكلام على مدينة حلب أن بيمارستانين أحدهما يعرف بالعتيق والآخر بالجديد، ولكل منهما ناظر يخصه؛ وولاية كل منهما عن النائب بتوقيع كريم"^(١٠٦).

٣-١-٣: الشروط الواجب توافرها في ناظر البيمارستان:

٣-١-٣-١: أن يكون مسلماً.

٣-١-٣-٢: أن يكون متعلماً.

٣-١-٣-٣: أن يكون حسن السيرة والسلوك.

٣-١-٣-٤: لديه خبرة كافية لتولي المنصب.

كتبت هذه الشروط في وقفية البيمارستان المنصوري على الوجه التالي: "يكون المتولي مسلماً ظاهراً الأمانة، عارفاً بأنواع الكتابة، كافياً فيما يتولاه موصوفاً بدينه ودرايته وخبرته"^(١٠٧).

٣-١-٤: واجبات ناظر البيمارستان (الوصف الوظيفي (JOB DESCRIPTION).

٣-١-٤-١: الإشراف على الوقف الموقوف على البيمارستان وتمييزه والمحافظة عليه وتحصيل ريعه حسب شروط صاحب الوقف.

كتب في وقفية البيمارستان المنصوري: "ويتخير الناظر في تحصيل ريع هذا الوقف وحسن الحال على حسب الإمكان ويطلب ذلك حيث كان في كل جهة ومكان، بحيث لا يفرط ولا يفرط ولا يخرج في سلوكه عن السنين المتوسطة، ولا يهمل حقاً معيناً ولا يغفل عن أمر يكون صلاحه بيناً، لتكون هذه الصدقة طيبة مقبولة" (١٠٨).

٣-١-٤-٢: يقوم الناظر بالصرف من ريع هذا الوقف على مصالح البيمارستان (١٠٩) على الوجه التالي:

أ- الرواتب للأطباء والعاملين في البيمارستان:

"ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا البيمارستان من الأطباء المسلمين... (و) للقومة والفراشين الرجال والنساء.. وما يرى صرفه إلى كل بحسب عمله على أن كلاً منهم يقوم بخدمة المرضى" (١١٠).

لناظر البيمارستان: العشر عن المغل وريع الوقف.

الطبيب كحد أعلى: واحد وسبعون درهماً، ونصف غرارة من قمح.

الطبيب كحد أدنى: ستون درهماً، ونصف غرارة قمح.

الكحال: خمسة وأربعون درهماً، ونصف غرارة قمح.

قوام للمرضى الرجال: ثلاثة عشر درهماً، وسدس غرارة قمح.

لمن يقوم بمريضات النساء: عشرة دراهم، وسدس غرارة قمح.

صيدلي: ستة وعشرون درهماً، وثلاث غرارة قمح.

أمين المشارفين: ستون درهماً وغرارة قمح وغرارة شعير.

أمين المتولين: ستون درهماً وغرارة قمح وغرارة شعير.

الإمام (إمام المسجد): أربعون درهماً وثلاث غرارة قمح.

المعمار المرتب لعمارته (المسؤول عن الصيانة): ثلاثة عشر درهماً وسدس غرارة قمح^(١١١).

(ب) بند التموين: ويتم الصرف على الوجه التالي:

ب-١: ثمن سكر لصنع الأشربة الطبية، وعقاقير وأدوية وغيرها مما يحتاج إليها في علاج المرضى:

"ثمن سكر يصنعه أشربة مختلفة الأنواع، ومعالجين وثمان ما يحتاج إليه لأجل ذلك من الفواكه والخماير، رسم الأشربة وثمان ما يحتاج إليه من أصناف الأدوية والمعالجين والعقاقير والمراهم والأكحال والشيافات والذرورات والأدهان والسفوفات والدرياقات والأقراص وغير ذلك"^(١١٢).

ب-٢: يصرف هذا البند على المواد الغذائية اللازمة للمرضى المنومين في البيمارستان:

"يصرف الناظر من ريع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى إليه من مشموم في كل يوم، وزبادي فخار برسم أغذيتهم وأقداح زجاج وغرار برسم أشربتهم وكيزان وأباريق فخار وقصاري فخار وزيت للوقود عليهم، وبماء من بحر النيل المبارك برسم شربهم وأغذيتهم" (١١٣).

ب-٣: يصرف من هذا البند على ما يحتاجه البيمارستان من أدوات وأثاث وغيرها لإيواء المرضى ومعالجتهم:

"والفرش والقصور والآلات المعدة للانتفاع بها في مثله يصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور ثمن ما تدعو حاجة المرضى إليه من سرير حديد أو خشب على ما يراه مصلحته ولحف محشوة قطناً وطرايح محشوة بالقطن أيضاً وملاحف قطن ومخاد وطرح أو آدم محشوة على ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده. وهو مخير بين أن يفصل كل نوع من ذلك يصرف أجرة خياطته وعمله وثمان حشوه وبين أن يشتري ذلك معمولاً مكملًا" (١١٤).

ب-٤: يصرف من هذا البند كسوة للمرضى المنومين:

كتب في وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا: "ممن هو مقيم له كسوة مثله على العادة بحسب الحال" (١١٥). وكتب عبد الرحمن المراكشي عن بيمارستان مراكش: "وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء" (١١٦).

ب-٥: يصرف من هذا البند على شراء أكفان للمرضى الذين يتوفون في البيمارستان:

"ما تدعو الحاجة إليه في تكفين من يموت بهذا البيمارستان من المرضى والمختلين الرجال والنساء"^(١١٧).

في نهاية بند التموين نورد خطاب الوزير علي بن عيسى بن الجراح شديد اللهجة إلى ناظر وقف بيمارستان بدر غلام المعتضد، عندما ضيق الصرف على البيمارستان، فاضطر مسؤول البيمارستانات في بغداد في ذلك الوقت "سنان بن ثابت" إلى رفع الأمر إلى الوزير، فكتب الوزير علي بن عيسى إلى ناظر الوقف:

"أنت أكرمك الله تقف على ما ذكره وهو غلط جداً والكلام فيه معك خاصة فيما يقع منك يلزمك، وما أحسبك تسلم من الإثم فيه. وقد حكيت عني في الهاشميين قولاً لست أذكره، وكيف تصرفت الأحوال في زيادة المال ونقصانه ووفوره أو قصوره، ولا بد من تعديل الحال فيه، بين أن تأخذ منه وتجعل للبيمارستان قسطاً بل هو أحق بالتقديم على غيره لضعف من يلجأ إليه وعظيم النفع به. فعرفني أكرمك الله ما النكتة في قصور المال ونقصانه في تخلف نفقة البيمارستان هذه الشهور المتتابة، وفي هذا الوقت خاصة مع الشتاء واشتداد البرد. فأحتل بكل حيلة لما يطلق لهم ويعجل حتى يدفأ من في البيمارستان من المرضى والممرورين بالدثار والكسوة والفحم، ويقام لهم القوت، ويتصل لهم العلاج والخدمة، وأجبنني بما يكون منك في ذلك وأنفذ لي عملاً يدلني على حجتك واعن بأمر البيمارستان فضل عناية إن شاء الله تعالى"^(١١٨).

(ج) بند التعليم الطبي:

حيث إن أحد أهداف هذا البيمارستان أن يكون مدرسة عليا لتدريس الطب، على الناظر أن يقوم بالصرف من هذا البند على التعليم الطبي من صرف رواتب لمن يختارهم للتدريس، وتهيئة المكان، وتوفير الكتب اللازمة لمكتبة البيمارستان.

تحدثنا في الفصل الثالث من الباب الثاني عن تنظيم التعليم الطبي بإسهاب، فقط نضيف هنا ما ورد في وقفية الأمير عبد الرحمن كتحدا: " والاشتغال فيه بعلم الطب والاشتغال به..... على أن تكون المسطبة الكبرى التي بالبيمارستان المرقوم مرصدة لجلوس مدرّس من الحكماء والأطباء عارفا بالطب وأوضاعه متبحرا في فضله لكثرة عمله وإطلاعه عالما بأسباب الأمراض وعلاجاتها، ولجلوس المشتغلين بعلم الطب على اختلافه" (١١٩).

(د) بند دفن الموتى:

يقوم الناظر بالصرف من هذا البند على دفن الموتى من المرضى المنومين في البيمارستان. فيدفع تكلفة الغسل والتكفين وأجرة الغاسل وحافر القبر (١٢٠).

(هـ) بند صرف معاشات للمرضى الفقراء عند خروجهم:

يقوم الناظر بالصرف من هذا البند على المرضى الفقراء الناقهين عند خروجهم من البيمارستان لحين مقدرتهم على التكسب (١٢١).

(و) بند الصيانة والعمارة:

يقوم الناظر بالصرف من هذا البند على صيانة وعمارة الممارستان^(١٢٢).

(ز) يقوم الناظر بالصرف على مصالح الممارستان حسب البنود السابقة على أن يراعي في إدارته المالية ما يلي:

ز-١: أن يراعي في الأمور المالية الأولويات في المتطلبات.

والأولوية الأولى في الممارستان القيام بمصالح المرضى وعدم التضيق عليهم وأن يقدم في ذلك الأحوج فالأحوج.

"ويقدم في ذلك الأحوج فالأحوج من المرضى والمحتاجين والضعفاء والمنقطعين والفقراء والمساكين... من غير زيادة تقتضي التضيق على المرضى والقيام بمصالحهم، كل ذلك على ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده بحسب ما تدعو إليه الحاجة"^(١٢٣).

ز-٢: أن يراعي الناظر في إدارته المالية عدم الإسراف:

سواء في الصرف على الأمور التموينية أو في تقرير أجور العاملين أو عددهم، وفي نفس الوقت عليه عدم الإجحاف في هذه الأمور، بل تكون إدارته المالية قائمة على الصرف حسب الحاجة.

"ولا يصرف من ذلك لأحد شيئاً إلا بقدر حاجته إليه.. ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى إليه... ويصرف الناظر ثمن ذلك من ريع

هذا الوقف في غير إسراف ولا إجحاف ولا زيادة على ما يحتاج إليه كل ذلك...
ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا البيمارستان من الأطباء
المسلمين... بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى وهو مخير في العدة
وتقرير الجامكيات (الأجور) ما لم يكن في ذلك حيف ولا شطط" (١٢٤).

٣-٤-١: يقوم الناظر بتعيين الإداريين المساعدين له في إدارة
البيمارستان من خازن وأمين مخزن ومستخدمين ومباشرين وغيرهم (١٢٥).

٣-٤-٢: يقوم الناظر بتتصيب الأطباء (في التخصصات المختلفة بعد
اختيارهم من رئيس الأطباء)، وكذلك الصيادلة والقومة والفراشين والطباخين
وغيرها من المهن اللازمة للعناية بالمرضى ومعالجتهم.

ورد في وقفية الأمير عبدالرحمن كتحدا ما يلي:

"وللناظر أن ينصب من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحالين والجرائحيين
بحسب ما تقتضيه الزيادة وحاجة المرضى..." (١٢٦).

وورد فيها أيضا: "ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور على... وعلى
من يقوم لمصالح المرضى به من الأطباء والكحالين والجرائحيين وطباخي الشراب
والطعوم وصانعي المعاجين والكحال والأشربة...، وعلى القومة والفراشين
والخزان والأمناء والمباشرين وغيرهم من عادة أمثالهم في ذلك..." (١٢٧).

٣-١-٤-٥: على الناظر أن يراعي شروط صاحب الوقف المذكورة في الوقفية أثناء إدارته للبيمارستان ولا يحيد عنها^(١٢٨).

٣-١-٤-٦: على ناظر البيمارستان أن يضبط حسابات ومصروفات البيمارستان وأن يقدم كشفاً بذلك إلى من يهمله الأمر^(١٢٩).

٣-١-٤-٧: على ناظر البيمارستان أن يتفقد سير العمل في البيمارستان بنفسه وعليه معاقبة المقصر إذا لزم الأمر^(١٣٠).

أمر تعيين ناظر بيمارستان؛

نورد هنا أمر تعيين ناظر البيمارستان النوري بدمشق كما جاء في صبح الأعشى:

"نسخة توقيع بنظر البيمارستان النوري":

"رسم..... - لا يزال يطلع في سماء المناصب السنية من ذوي الأصالة والكفاية شهاباً، ويوزع بجهات البر شكره إذ اختار لهم من أهل النهضة من أرتضى العفاف جلباباً..... أن يحمل مجلس الأمير فلان: أعزه الله تعالى فيما هو بيده من نظر البيمارستان النوري بدمشق المحروسة على حكم التوقيع الكريم والولاية الشرعية للذين بيده واستقراره في ذلك بمقتضاهما استقراراً ييسر هذا المنصب يده ولسانه...

فليباشر ذلك على عادة مباشرته الحسنة، وليسلك فيها ما عهد من طريقتة المستحسنة، محصلاً من المفردات ما يصرفها لمستحقها وقت الحاجة إليها،

مثابراً على حسن معالجة المضرور الذي لا تقدر يده من العجز عليها، مواصلاً فعل الخير باستمرار صدقات الواقف ليشركه في الأجر والثواب، مستجلباً له من الدعاء ولنا بمشاركته في الأمر بالعمل بسنته إلى يوم المآب، ضابطاً أموال هذه الجهة بتحرير الأصول والمطلق والحساب والحساب، متقدماً إلى الخدام والقومة بحسن الخدمة للعاجز والضعيف، مؤكداً عليهم في أخذهم بالقول اللين دون الكلام العنيف، ملزماً لهم بجودة الخدمة ليلاً ونهاراً، مؤاخذاً لهم بما يخلون به من ذلك إهمالاً وإقصاراً، متقدماً إلى أرباب وظائف المعالجة ببذل النصيحة، واستدراك الأدواء المسقمة بإتقان الأدوية الصحيحة، وليتفقد في ذلك جهده فإن الاجتهاد القليل يؤثر الخير الكثير. والوصايا كثيرة وعنده من التأدب بالعلم وحسن المباشرة ما فيه كفاية، وفي أخلاقه من جميل المآثر وما حازه في البداية ما ينفعه في النهاية؛ ولكن تقوى الله عز وجل هي السبب الأقوى، والمنهل الذي من ورده يروى؛ فليجعلها له ذخيرة ليوم المعاد، ومعقلاً عن الخطوب الشداد، والله تعالى يبلغه من التوفيق الأمل والمراد، بمنه وكرمه والاعتماد... إن شاء الله تعالى^(١٣١).

٢-٣: الوظائف الإدارية والمالية المساعدة (المباشرون):

١-٢-٣: المساعدون للشؤون الإدارية (مباشرو الإدارة):

وهم الموظفون والمستخدمون الذين يقومون بمساعدة الناظر في إدارة اليممارستان من مباشرين وأمناء وخزان، أي الذين يقومون بوظائف اليممارستان، وابتياح ما يحتاج إليه من الأصناف، وضبط ما يدخل إلى المكان وما يخرج منه،

بدون أن تكون لهم صلاحية دفع المستحق مباشرة إلى المورد بل يحيلونه إلى ديوان صندوق المستخرج (قسم المحاسبة).

كما يقوم المباشرون الإداريون بترتيب رواتب الموظفين: يكتبها العامل ويوقع عليها الشهود ثم تصادق من ناظر البيمارستان ، وترسل إلى ديوان صندوق المستخرج لصرفها^(١٣٢) وتضاف إلى هذه الفئة الوظائف التالية:

١-١-٢-٣: الخازن (خازن البيمارستان):

يكون خازنا لمخزن حاصل التفرقة، يتولى تفرقة الأشربة والأكحال والأعشاب والمعاجين والأدهان والشيافات المأذون له في صرف ذلك من المباشرين^(١٣٣).

٢-١-٢-٣: الأمين (أمين البيمارستان):

- يتسلم صبيحة كل يوم وعشيته أقداح الشراب المختصة بالمرضى والمختلين من الرجال والنساء المقيمين بهذا المارستان.

- يفرق ذلك عليهم (على المرضى) ويياشر شرب كل منهم لما وصف له من ذلك.

- يياشر المطبخ بهذا البيمارستان وما يطبخ به للمرضى من مزاور ودجاج وفراريح ولحم وغير ذلك.

- يجعل لكل مريض ما طبخ له في كل يوم في زبدية منفردة له من غير

مشاركة مع مريض آخر ويغطيها ويوصلها إلى المريض إلى أن يتكامل إ طعامهم ويستوفي كل منهم غذاءه وعشاءه وما وصف له بكرة وعشية^(١٣٤).

٢-٢-٣: المساعدون للشؤون المالية (مباشرو الصندوق والرباع):

وهم الموظفون الذين يقومون بمساعدة ناظر البيمارستان في الشؤون المالية في استخراج الأموال ومحاسبة المستأجرين، وصرف الأموال بمقتضى حوالة مباشري الإدارة ولا يتصرفون في غير ذلك، كما لا يتصرف مباشرة الإدارة في صرف الأموال إلا حوالة بإرادتهم^(١٣٥).

٣-٣: الوظائف المهنية المساندة:

١-٣-٣: الصيدالة:

الذين يقومون بتحضير وإعداد الأدوية للمرضى في البيمارستان من طباطبي الشراب وصانعي المعاجين والأكحال والأشربة والمسهلات المفردة والمركبة^(١٣٦).

١-٣-٣-١: مهتار الشرابخانة (رئيس الصيدلية في البيمارستان):

هو المسؤول عن الصيدلية وبقية الصيدالة في البيمارستان. متسلم لحواصلها وله مكانة عالية.

٢-٣-١-٢: شراب دار: شراب دار^(١٣٧) هم بقية الصيدالة في البيمارستان

الذين يقومون بتحضير وإعداد وتفريق الدواء حسب وصفات الأطباء.

٣-٣-٢: القومة والفراشون:

الذين يقومون برعاية المرضى وخدمتهم وتقديم العلاج الموصوف من قبل الطبيب (والمعد من قبل الصيدلي)، وتكون مهمة الفرد منهم: "أن يتعاهد المرضى ويقوم بما يحتاج إليه من غسل ثيابه وتنظيف مكانه وإصلاح شأنه وحك رجليه والقيام بمصالحه، والاهتمام بشربه وغذائه وترتيب المشموم له على العادة بحسب ما تدعو الحاجة إليه. ولا يشرك مريضاً مع مريض آخر في شراب ولا في غداء. ويتقي الله سبحانه وتعالى في خدمتهم ويراقبه جل جلاله في ملاطفتهم ويجتهد في إتمامه عندهم..."^(١٣٨).

٣-٣-٣: المعماريون (مباشرو العمارة):

(نستطيع أن نطلق عليهم اسم مسؤولي الصيانة بالتعبير الحديث)

عليهم ابتياع الأصناف واستعمال الصباغ ومرمة الأوقاف وغير ذلك مما يدخل في وظيفتهم، وهم كمشرفي الإدارة يقومون بتحويل أثمان الأصناف على الصندوق، وينقل عليهم من الصندوق من المال ما يصرفونه لأرباب الأجر خاصة، ويكتبون كل شهر عمل استحقاق بثمن الأصناف وأرباب الأجر ويخصمونه بما أحالوا به على الصندوق وما وصل إليهم من المال^(١٣٩).

وقد تسند إلى بعض هؤلاء وظائف إدارية أخرى كما جاء في وقفية البيمارستان القيصري:

"وللمعمار المرتب لعمارته في كل شهر ثلاثة عشر درهما وسدس غرارة قمح ويكون بواباً" (١٤٠).

٣-٤: وظائف أخرى:

مثل الإمام، ومقرئ القرآن، والبواب، والطباخ، والفحام، والخياط وغيرها.

٣-٤: وظائف الرقابة الإدارية والمالية:

وهذه الوظائف على شاغلها مراقبة الأمور الإدارية والمالية في البيمارستان ومدى مطابقة الإجراءات لشروط صاحب الوقف.

٣-٤-١: الشاد (المفتش العام):

جاء في "التعريف بمصطلحات الصبح" في تعريف وظيفة الشد: "الشد ترادف كلمة تفتيش ويسمى متولي هذه الوظيفة "الشاد" مضافاً إليها جهة الاختصاص مثل شاد الجوالي، وشاد الأوقاف وشاد الزكاة وغير ذلك" (١٤١).

٣-٤-٢: المشارف:

نستطيع أن نطلق عليه مدقق ومراجع الحسابات للتأكد من مدى صحتها وموافقتها لشروط الصرف في الوقفية.

"عمل المشارف طلب التفاصيل الكاملة عن أي جهة من الجهات الضريبية التي تقع في دائرة عمله؛ ويدخل في عهده جميع المتحصلات المالية بعد ختمها" (١٤٢).

جاء في وقفية الملك المنصور قلاوون: "ثم ما فضل بعد ذلك صرف منه الناظر ما يرى صرفه لمن يتولى إنجاز ذلك واستخراج أجرته وعمارته وصرف ريعه في وجوهه المشترطة فيه وتفرقة أشربته وأدويته. من شد وناظر ومشارف..."^(١٤٣).

وللاستدلال: إن هاتين الوظيفتين الرقابيتين ترتبطان بالناظر فنقل هنا ما جاء في صبح الأعشى وإن كان الكلام عن ناظر الموارث الحشرية فإنه ينطبق أيضاً على ناظر الوقف وناظر الممارسات:

"أما بحاضرة الديار المصرية فإن لهذه الجهة (الموارث الحشرية) ناظرًا يولى من قبل السلطان بتوقيع شريف ومعه مباشرين من شاد وكاتب ومشارف وشهود"^(١٤٤).

كما أورد القلقشندي في صبح الأعشى: "رسم - أعلى الله المراسيم وأدام نفاذها - بالتعويل على الأمير فلان في توليه الوقوف بالجامع المعمور بحلب المحروسة، والممارسات، والمساجد والمشاهد بالأماكن والمواضع..... ناظرًا في الوقوف ومصارفها، وتتبع شروط واقفها بكل ما يعود بتعمير أعمالها وتثمين أموالها، وتدبير أحوالها، مطالباً بحساب من تقدمه وتحقيق مبالغه تكميلاً وإضافة، واحتساباً وسيافة وليطلب شواهد، وليبين على الصحة قواعده وليلتمس ما يصح من بواقيه من جهاتها، وليكشف بما يوضحه من سبل الأمانة وجوه شبهاتها، وقد أذن له في استخدام من يراه من النواب والمتصرفين والمشارفين..."^(١٤٥).

المادة الرابعة: تنظيم الهيئة الطبية في البيمارستان؛

مداخلة هامة: قبل الحديث عن المادة الرابعة وتنظيم الهيئة الطبية في البيمارستان خلال وصفنا لنظام العمل في أحد البيمارستانات؛ لابد لنا من الحديث عن تطور العلاقة بين رئيس أطباء البيمارستان وناظره خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية. فالمتبع لتطور هذه العلاقة خلال تلك العصور من النصوص المتوفرة لنا يجد أنه في بدايات إنشاء البيمارستانات في العالم الإسلامي خلال العصور الأولى للدولة العباسية وقبل رسوخ نظامهم الإداري لهذه البيمارستانات وتطوره وتعقيده؛ كان ناظر البيمارستان تتحدد مسؤولياته في إدارة الوقف، وتحصيل ريعه وتوفير المال اللازم لعمل البيمارستان، وضبط حسابات البيمارستان، أي نستطيع أن نقول إن عمله الأساس يتركز في الشؤون المالية أما المسؤوليات الإدارية الأخرى والمسؤوليات الفنية فكانت ضمن اختصاص رئيس الأطباء.

ونجد أن رئيس الأطباء يخاطب الوزير المسؤول رأساً فيما يخص شؤون البيمارستان، بل في بعض الأحيان يخاطب الخليفة رأساً في هذه المواضيع. فهذا هارون الرشيد يأمر طبيبه جبريل بن بختيشوع بإنشاء بيمارستان في بغداد. وهذا الطبيب سنان بن ثابت بن قرة يقترح على الخليفة المقتدر بالله أن يتخذ بيمارستاناً ينسب إليه فيأمره بإنشائه. والطبيب سنان هذا هو نفسه بطل القصة التي سبق أن رويناهما في هذا الفصل والتي سنعيدها هنا فهي تزودنا بنص هام يثبت ما قلناه أعلاه.

والقصة تتلخص في أن ناظر وقف "البيمارستان الذي لبدر المعتضدي" ضيق النفقة على البيمارستان مما أضر بالمرضى فكتب رئيس الأطباء سنان بن ثابت إلى الوزير علي بن عيسى يخبره بذلك، وأن تقتير الناظر أدى إلى قصور ما يقدم للمرضى من الفحم والمؤن والدثار وغير ذلك. فقام الوزير بتوبيخ الناظر بخطاب نعيد نصه هنا لروعته: "أنت أكرمك الله تقف على ما ذكره وهو غلط جدا والكلام فيه معك خاصة فيما يقع منك يلزمك، وما أحسبك تسلم من الإثم فيه. وقد حكيت عنى في الهاشميين قولاً لست أذكره، وكيف تصرفت الأحوال في زيادة المال أو نقصانه ووفوره أو قصوره، ولا بد من تعديل الحال فيه، بين أن تأخذ منه وتجعل للبيمارستان قسطاً بل هو أحق بالتقديم على غيره لضعف من يلجأ إليه، وعظيم النفع به"^(١٤٦).

هذا كان في البدايات ولكن مع التطور الحضاري الكبير الذي تم وما رافقه من تطور في الطب وتحول هذه البيمارستانات من النمط الجنديسابوري المبسط إلى مراكز عالية المستوى في الطب العلاجي، وإلى أكاديميات لتعليم الطب وعلومه كما مر معنا في الفصول السابقة؛ أدى إلى تعقيد العلاقات الإدارية والمالية والفنية داخل البيمارستان وخارجه مع الجهات المعنية بشؤون الصحة في ذلك الوقت. مما أدى إلى حتمية تطوير النظم الإدارية في البيمارستانات لتستوعب هذه المتغيرات والتطورات الداعية إلى تفرغ الأطباء ورؤسهم إلى معالجة المرضى، والبحوث العلمية، والتعليم الطبي وبالتالي إلى تركيز الأمور الإدارية والمالية بيد ناظر البيمارستان ومعاونيه، وتطور الأمر ليصل إلى أن ناظر البيمارستان هو الذي يقوم بتعيين مسؤول التعليم الطبي في البيمارستان الذي هو في الوقت نفسه رئيس الأطباء.

ولإثبات ما كتبناه في السطور السابقة وبعد أن أوضحنا الوضع الذي كان في البدايات بقصة سنان بن ثابت؛ نورد هنا بعض النصوص من العصور اللاحقة لنرصد سويًا هذا التطور الذي طرأ في العلاقة بين ناظر البيمارستان الذي أصبح مسؤولاً عن جميع الشؤون الإدارية والمالية وبين رئيس أطباء البيمارستان الذي تفرغ للأمور المهنية والفنية والتعليمية، وبهذا ارتبط رئيس الأطباء (وبالتالي الأطباء) بناظر البيمارستان وإن بقي الأطباء مرتبطين مهنيًا وفنيًا برئيسهم. (وهذا يقرب من النظم الحديثة في إدارة المستشفيات).

سنورد هنا نصوصاً منقولة عن وقفية السلطان الملك المنصور قلاوون على البيمارستان المنصوري (أحد أعظم البيمارستانات التي أنشئت في العصور الإسلامية بل أحد أعظم المستشفيات على مر العصور). وكذلك سنورد نصوصاً من وقفية الأمير عبدالرحمن كتحدا على نفس البيمارستان.

ورد في وقفية الملك المنصور قلاوون: "على أن الناظر في هذا الوقف والمتولي عليه يؤجر العقار من هذا الوقف المذكور وما شاء منه بنفسه أو بنائيه مدة ثلاث سنين فما دونها..... ويتخذ الناظر في تحصيل ريع هذا الوقف وحسن الحال على حسب الإمكان..... صرف منه (أي الوقف) الناظر ما يرى صرفه لمن يتولى إنجاز ذلك واستخراج أجرته وصرف ريع في وجوهه المسترطة فيه وتفرقة أشربته وأدويته من شد وناظر ومشارف ومشاهد وكاتب وخازن..... ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن ينصبه بهذا البيمارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحالين والجرائحين بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة

المرضى وهو مخير في العدة وتقرير الجامكيات..... ويصرف الناظر من هذا الوقف لمن ينصبه شيخا للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه يجلس بالمصطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه في الأوقات التي يعينها له الناظر...^(١٤٧).

ليس هذا فقط بل الناظر يتدخل في جداول مناوبات الأطباء إن لم يتفقوا مع بعضهم البعض:

"يباشرون (يقصد الأطباء) المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا الممارستان مجتمعين ومتناوبين باتفاقهم على التناوب، أو بإذن الناظر في التناوب...".

ومن وقفية الأمير عبد الرحمن كتحدا نورد هنا النصوص: "وتكون القاعة المتوصل إليها من الباب الثالث مرصدة لإقامة الرمداء من الرجال الفقراء أو لمن يرى الناظر إقامته بها من المرضى..... ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف المذكور على مصالح الممارستان المرقوم من أكحال تكون فيه معدة للسبيل وأشرية تحلو كالسلسبيل وأطباء تحضره في البكرة والأصيل.. وللناظر أن ينصب من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحاليين والجرائحين بحسب ما تقتضيه الزيادة وحاجة المرضى وهو مخير في العدة وتقدير الجامكيات بالترتيب في ذلك".

وليرجع القارئ العزيز إلى النص الذي أوردناه في صفحات سابقة عن "أمر تعيين ناظر الممارستان النوري نقلاً عما كتبه "القلقشندي" في "صبح الأعشى"

فإن ما جاء فيه يثبت هذا التطور في العلاقة بين ناظر البيمارستان ورئيس أطبائه.

المادة الرابعة: تنظيم الهيئة الطبية:

٤-١: تتشكل الهيئة الطبية من جميع الأطباء المؤهلين العاملين في البيمارستان والمختارين من قبل رئيس الأطباء والمعينين بأمر ناظر البيمارستان.

كتب ابن أبي أصيبعة في رثعته: "قال عبدالله بن جبرائيل أنه لما عمّر عضد الدولة البيمارستان الجديد الذي على طرف الجسر من الجانب الغربي من بغداد كان الأطباء الذين جمعهم فيه من كل موضع، وأمر الراتب منه أربعة وعشرون طبيباً"^(١٤٨).

٤-٢: تنظيم الهيئة الطبية حسب التخصصات:

يتم تنظيم الهيئة الطبية حسب التخصصات التي يمارسها الأطباء والتي حصلوا في مجالها شهاداتهم وتصاريح عملهم. فيكون هناك أطباء طبائعيون وجراحيون وكحالون ومجبرون وغيرهم.

قال عبيدالله بن جبرائيل: "وكان والد جبرائيل قد أصعد مع عضد الدولة من شيراز ورتب في جملة الطبائعيين في البيمارستان، وفي جملة الأطباء الخواص قال: وكان في البيمارستان مع هؤلاء من الكحالين الفضلاء أبو النصر بن الدحلي، ومن الجراحين أبو الخير وأبو الحسن بن نقاح وجماعته، ومن المجبرين المشار إليهم أبو الصلت"^(١٤٩).

ومن وقفية البيمارستان المنصوري: "لمن ينصبه بهذا البيمارستان من الأطباء المسلمين الطبائعيين والكحالين والجراثحيين بحسب ما يقتضيه الزمان وحاجة المرضى".

٤-٣: مسؤوليات وواجبات الأطباء في البيمارستان:

٤-٣-١: مباشرة المرضى والمختلين والمرور اليومي عليهم.

٤-٣-١-١: المرور اليومي على المرضى مريض بعد مريض في الصباح والمساء.

٤-٣-١-٢: الكشف على المريض والسؤال عن حاله مع مراقبة تطور المرض عنده من زيادة أو نقصان.

٤-٣-١-٣: كتابة نتائج الكشف وكل ما يستجد، والعلاج المقرر في دستور ورق (الملف الطبي) ليتبعه القوامون على المرضى في إعطاء العلاج والغذاء لهم.

٤-٣-٢: يلتزم الأطباء بالتناوب في العمل بالبيمارستان بحيث يضمن تقديم العناية الطبية للمرضى المنومين على مدى أربعة وعشرين ساعة.

٤-٣-٣: على الطبيب المعالج في تخصص ما أن يستشير زميله في تخصص آخر إذا استدعت حالة المريض ذلك.

جاء في وقفية البيمارستان المنصوري: "يباشرون (يقصد الأطباء) المرضى والمختلين الرجال والنساء بهذا البيمارستان مجتمعين ومتناوبين باتفاقهم على

التناوب، أو بإذن الناظر في التناوب، ويسألون عن أحوالهم وما يتجدد لكل منهم من زيادة أو نقص ويكتبون بما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء وغيره، في دستور ورق ليصرف على حكمه، ويلتزمون المبيت في كل ليلة بالبيمارستان مجتمعين أو متناوبين. ويجلس الأطباء الكحالون لمداواة أعين الرمداء بهذا البيمارستان ولمداواة من يرد إليهم به من المسلمين الرمداء من مداواة عينيه بكرة كل يوم ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها ويرفقون بالرمداء في ملاطفتهم وإن كان بينهم من به قروح أو أمراض في عينيه تقتضي مراجعة الكحال للطبيب الطبائعي، راجعه وأحضره معه وباشر معه من غير انفراد عنه ويراجعه في أحوال برئة وشفائه" (١٥٠).

كما ورد في وقفية الأمير عبد الرحمن كتحدا: "على الأطباء المرتين بالبيمارستان المرقوم والكحالين والجرائحين مباشرة المرضى بالبيمارستان الرجال والنساء مريضاً بعد مريض بحيث يستوعبون جميع المرضى بالمباشرة في كل يوم بكرة وعشية" (١٥١).

٤-٣-٤: بالإضافة إلى البنود السابقة تنطبق جميع المسؤوليات والواجبات المذكورة في مواد نظام ممارسة صناعة الطب على الأطباء العاملين في البيمارستان (١٥٢).

٤-٤: رؤساء الهيئة الطبية في البيمارستان:

١-٤-٤: رئيس الأطباء:

المرجعية الفنية الإدارية المهنية والتعليمية والرقابية الأولى في الممارسات لجميع الأطباء العاملين فيه^(١٥٣).

٤-٤-٢: رؤساء الأطباء الخواص:

يرأسون الأطباء الخواص العاملين في الممارسات مثل رئيس الجراحين ورئيس الكحالين ورئيس المجبرين الخ. وله من الصلاحيات والمسؤوليات على طائفته ما لرئيس الأطباء، ويرتبطون برئيس أطباء الممارسات^(١٥٤).

المادة الخامسة: أقسام المستشفى الطبية:

١-٥: حيث أن الغاية من إنشاء هذا الممارسات تقديم الخدمات العلاجية للمحتاجين لها من الرجال والنساء والأغنياء والفقراء على اختلاف أجناسهم وأوصافهم وسائر أمراضهم من أمراض الأجسام قلت أو كثرت اتفقت أو اختلفت، وأمراض الحواس خفت أو ظهرت واختلال العقول التي حفظها أعظم المقاصد، فإن الممارسات يحتوي على جميع التخصصات المتوفرة. ويقسم مبناه إلى أقسام حسب هذه التخصصات ليحتوي كل قسم على حدة عنابر لإيواء مرضاه وبحيث تكون عنابر النساء مفصولة عن عنابر الرجال.

جاء في وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا:

"وتكون القاعة المتوصل إليها من الباب الثالث مرصدة لإقامة الرمداء من الرجال الفقراء..... وتكون القاعة المتوصل إليها من الباب السابع برسم إقامة المرضى الفقراء الرجال المسهولين، وتكون المصطبة الكبرى المتوصل إليها من

الدهليز الذي بأوله باب المطبخ برسم وإقامة المجروحات والمكسورات من النساء، وتكون القاعات الثلاث المتوصل منها إلى المطبخ المرصد لطبخ الأشرية وإلى المخزنين بجوار المرصدين لحفظ حواصل المطبخ مرصدين برسم إقامة المريضات الفقيرات من النساء... .. وتكون القاعة المرصدة لإقامة المختلين من الرجال برسم إقامة كل من يرد إليها من المختلين الرجال وكذلك القاعة المجاورة لها فإنها مرصدة برسم المختلات من النساء..."^(١٥٥).

٥-٢: رؤساء الأقسام الطبية:

هم رؤساء أطباء التخصصات المختلفة حسب ما جاء في المادة الرابعة ويقومون بإدارة أقسامهم ويرتبطون برئيس الأطباء.

المادة السادسة: نظام المعالجة في البيمارستان؛

٦-١: تتم المعالجة في البيمارستان والحصول على العلاج بإحدى ثلاث طرق:

٦-١-١: العلاج الداخلي:

إذا رأى الطبيب المعالج أن حالة المريض تستدعي التنويم في البيمارستان لتلقي العلاج، تعرض الحالة على رئيس الأطباء الذي بعد موافقته يتم تحويل المريض إلى القسم المختص لحالته، حيث يقيم فيه لتلقي العلاج.

(سبق أن تحدثنا عن هذا بما يكفي في الصفحات السابقة ولا داعي هنا

لتكرار النصوص).

٦-١-٢: العلاج الخارجي في عيادات البيمارستان:

هنا يتم حضور المريض إلى البيمارستان حيث يقوم الطبيب المعالج بالكشف عليه في الأماكن المخصصة لذلك، ثم يصف له الدواء المناسب، ويقوم المريض بصرفه من الشراب خاناه التابعة للبيمارستان.

سبق أن أوردنا عزيزي القارئ كيف كان ابن أبي أصيبعة يقوم بعد الانتهاء من المرور اليومي على المرضى بصحبة رئيس الأطباء (الدخوار) بالذهاب إلى عيادة الطبيب رضي الدين الرحبي حيث يجلس معه أثناء معالته للمرضى غير المنومين.

٦-١-٣: الزيارات المنزلية:

في الحالات التي يصعب نقل المريض إلى البيمارستان يتم تقديم العلاج للمريض في منزله. علماً بأن الأولوية في العلاج للمرضى المقيمين.

ورد في وقفية الأمير عبد الرحمن كتحدا: "ومن كان مريضاً في بيته وهو فقير كان للناظر أن يصرف ما يحتاج إليه من حاصل هذا البيمارستان والأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها مع عدم التضيق في الصرف على من هو مقيم به (يقصد المقيم في البيمارستان)"^(١٥٦).

٦-٢: تسجيل أسماء المرضى المنومين (المقيمين):

يتم تسجيل أسماء المرضى المنومين في ملفات خاصة بذلك.

قال ابن جبير عندما وصف البيمارستان النوري بدمشق: "وله قومة وبأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى..."^(١٥٧).

٣-٦: الدستور الطبي (الملف الطبي):

على جميع أطباء البيمارستان أن يقوموا بعد الكشف على المريض سواء في العيادات الخارجية (المرضى الخارجيين) أو في عنابر الأقسام (المرضى المقيمين) بتدوين نتائج كشفهم، وما يستجد في حالته، وما يصرف له من علاج وغذاء وشراب في دستور المريض^(١٥٨).

المادة السابعة: التعليم الطبي والتدريب في البيمارستان:

حيث إن أحد أهداف البيمارستان الرئيسية أن يكون مدرسة عليا لتخريج الأطباء وتدريبهم؛ يتحتم على إدارة البيمارستان:

١-٧: تكليف رئيس الأطباء بالإشراف العام على التعليم الطبي والتدريب، يساعده رؤساء الأقسام المتخصصة.

٢-٧: يُخصص مكان في البيمارستان لإلقاء رئيس الأطباء وبقية معلمي الطب محاضراتهم على طلبة الطب.

٣-٧: إنشاء مكتبة طبية متكاملة في البيمارستان، ويُعين للعمل فيها الموظفون اللازمون.

بالإضافة إلى ما جاء في الفصل الثاني من الباب الثاني المخصص للحديث

عن تنظيم التعليم الطبي يمكننا أن نضيف هنا ما جاء في وقفية الملك المنصور قلاوون على البيمارستان المنصوري:

"والانشغال فيه بعلم الطب والاشتغال به..... ويصرف الناظر من هذا الوقف لمن ينصبه شيخا للاشتغال عليه بعلم الطب على اختلافه يجلس بالمصطبة الكبرى المعينة له في كتاب الوقف المشار إليه للاشتغال بعلم الطب على اختلاف أوضاعه في الأوقات التي يعينها له الناظر" (١٥٩).

وجاء في وقفية الأمير عبد الرحمن كتحدا: "على أن تكون المصطبة الكبرى التي بالبيمارستان المرقوم مرصدة لجلوس مدرس من الحكماء الأطباء عارفا بالطب وأوضاعه متبحرا في فضله لكثرة عمله وإطلاعه عالما بأسباب الأمراض وعلاجاتها، و لجلوس المشتغلين بعلم الطب على اختلافه" (١٦٠).

وكتب المقرئ في خطه في وصف البيمارستان المنصوري: "وجعل مكانا يفرق فيه الأشربة والأدوية ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس الطب..... وجعل بها خزانة كتب وستة خدم طواشية لا يزالون بها" (١٦١).

هوامش الفصل الرابع من الباب الثالث

- ١- ارجع إلى الفصل الأول من الباب الأول (الطب في الهند)، وهامش ١٣ من ذلك الفصل.
- ٢- ارجع إلى هامش ٢ من الفصل الثالث من الباب الثالث.
- ٣- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب ص ١٥٨.
- ٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٤٧/٤.
- ٥- الطبري: تاريخ الرسل والملوك حوادث سنة ٩٦ ص ١٢٧.
- ٦- أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص ١٧٨.
- ٧- زيجريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٣٤.
- ٨- ماهر عبد القادر محمد: دراسات وشخصيات ص ٣٠٣.
- ٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٥٦/٣.
- ١٠- المصدر السابق نفسه ٣٤٥/٢.
- ١١- المصدر السابق نفسه ٣٤٥/٢.
- ١٢- المصدر السابق نفسه ٢٥٧/٣.
- ١٣- المصدر السابق نفسه ٣٥٧/٢.
- ١٤- المصدر السابق نفسه ٣٤٤/٢.
- ١٥- وردت ضمن الشروط التي وضعها ابن رضوان رئيس أطباء سائر مصر لطلبة الطب. عيون الأنباء ١٧٠/٣.
- ١٦- كل ما ورد هنا من طرق الكشف؛ وردت ضمن نصائح ابن رضوان للأطباء من تلاميذه، انظر عيون الأنباء ١٧١-١٧٢/٣.
- ١٧- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصدر سابق، ٣٤٥/٢.
- ١٨- كما قلنا في بداية هذه القصة إن المكان قد يكون أي مدينة إسلامية في ذلك العصر، وإن الزمان يمتد بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر الميلادي. لذا فإننا سنجد في سياقها أسماء لم تلتق ولم تتعاصر لا في الزمان ولا في المكان.
- ١٩- كسابقه.

- ٢٠- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصر سابق، ٣/٣٩٠.
- ٢١- المصدر السابق نفسه ٣/٣٩٦.
- ٢٢- أورد هذا ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ٣/٣٩٦، عندما كان يتحدث عن أيام دراسته في البيمارستان الكبير، وكيف كان يسير مع بقية الأطباء، يرأسهم رئيس الأطباء الدخوار في مرورهم اليومي على المرضى في البيمارستان.
- ٢٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، المصدر السابق، ٣/٣٩٦.
- ٢٤- المصدر السابق نفسه ٣/٣٥٠.
- ٢٥- المصدر السابق نفسه ٣/٣٩٦-٣٩٧.
- ٢٦- المصدر السابق نفسه ٣/٣٩٦.
- ٢٧- المصدر السابق نفسه ٣/٢٥٦.
- ٢٨- المصدر السابق نفسه ٣/٣٩٦.
- ٢٩- قصة الغلام الذي قدم من بغداد إلى الري، ومريض أشاء الطريق ونفث دما؛ فعالجه الرازي. وردت في عيون الأنباء ٢/٣٤٦ وفي شمس العرب ص ٢٤٥.
- ٣٠- زيجريد هونكة: شمس العرب، مصدر سابق، ص ٢٥٤.
- ٣١- رحلة ابن جببر ص ٢٢٠، وأيضاً زيجريد هونكة: شمس العرب، المصدر السابق، ص ٢٢٧.
- ٣٢- الخطط المقرية ٤/٢٥٩.
- ٣٣- المصدر السابق نفسه ٤/٢٥٩.
- ٣٤- زيجريد هونكة: شمس العرب، مصدر سابق، ص ٢٢٧.
- ٣٥- المقريري: مصدر سابق ٤/٢٥٩.
- ٣٦- ابن جببر: مصدر سابق ص ٢٢، وأيضاً المقريري: مصدر سابق ٤/٢٦٠، وزيجريد هونكة: مرجع سابق ص ٢٢٨.
- ٣٧- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٣/٢٩٤.
- ٣٨- المصدر السابق نفسه ٢/٧٤.
- ٣٩- المصدر السابق نفسه ٣/٢٥٦.
- ٤٠- المصدر السابق نفسه ٢/٣٤٦.
- ٤١- الخطط المقرية، مصدر سابق، ٤/٢٥٩، وزيجريد هونكة: شمس العرب، مصدر سابق، ص ٢٦٤.
- ٤٢- زيجريد هونكة: شمس العرب، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

- ٤٣- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب عند العرب، مصدر سابق، ص ٢٨١.
- ٤٤- أحمد عيسى: معجم الأطباء ص ٢٩٥ وزيجريد هونكة: شمس العرب، مصدر سابق، ص ٢٦٨.
- ٤٥- زيجريد هونكة: شمس العرب، مصدر سابق، ص ٢٦٩ الهامش.
- ٤٦- أحمد عيسى: معجم الأطباء، مصدر سابق، ص ٢٩٣.
- ٤٧- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٣٥١/٢.
- ٤٨- المصدر السابق نفسه ٣٥١/٢.
- ٤٩- زيجريد هونكة: شمس العرب، مصدر سابق، ص ٣٣٤.
- ٥٠- المصدر السابق نفسه ص ٢٦٤.
- ٥١- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب، مصدر سابق، ص ١٩٩.
- ٥٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٣٥٥/٢.
- ٥٣- المصدر السابق نفسه ٣٦١/٢.
- ٥٤- المصدر السابق نفسه ٣٥١/٢.
- ٥٥- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب، مصدر سابق، ص ٢٧٤.
- ٥٦- زيجريد هونكة: شمس العرب، مصدر سابق، ص ٢٥١.
- ٥٧- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٣٥١/٢.
- ٥٨- المصدر السابق نفسه ٣٥٣/٢.
- ٥٩- المصدر السابق نفسه ١٧٠/٣.
- ٦٠- المصدر السابق نفسه ٣٤٢/٣.
- ٦١- إسحاق بن علي الرهاوي: أدب الطبيب، انظر قائمة المصادر والمراجع.
- ٦٢- مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٣.
- ٦٣- المصدر السابق نفسه ص ٥٤٤-٥٤٥.
- ٦٤- أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مصدر سابق، ص ٩٦ و ١٠٢، وزيجريد هونكة: شمس العرب، مصدر سابق، ص ٢٣١، الوافي في تاريخ العلوم عند العرب ص ٤١.
- ٦٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٣٥١/٢.
- ٦٦- المصدر السابق نفسه ١٧١/٣.
- ٦٧- الزهراوي: المقالة الثلاثون ص ٢٨١.
- ٦٨- المصدر السابق نفسه ٢٨١.
- ٦٩- المصدر السابق نفسه ٥٤.

- ٧٠- المصدر السابق نفسه ص ٢٨٢ .
- ٧١- المصدر السابق نفسه ص ٢٨٨ .
- ٧٢- المصدر السابق نفسه ص ٢٨٣ .
- ٧٣- المصدر السابق نفسه ص ٢٨٤ .
- ٧٤- المصدر السابق نفس المكان .
- ٧٥- عبده الحلو؛ وجابر بهزاد: المصدر السابق ص ٤١ .
- ٧٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ١٦٠/٣ .
- ٧٧- محمود الحاج قاسم محمد: الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به نقلا عن الزهراوي: "المقالة الثلاثون" ص ٥٣ .
- ٧٨- الزهراوي: المقالة الثلاثون، مصدر سابق، ص ٤٦٦-٤٦٣ .
- ٧٩- زيجريد هونكة: شمس العرب، مصدر سابق، ص ٢٨٠ .
- Otto Bettmann : A Pictorial History of Medicine p.58 .
- ٨٠- أحمد عيسى: تاريخ الممارسات في الإسلام، مصدر سابق، ص ١٠٢ و ١٠٣ .
- ٨١- المصدر السابق نفسه .
- ٨٢- Major: A History of Med. P.260 .
- ٨٣- وقفية السلطان الملك المنصور قلاوون نقلا عن أحمد عيسى: تاريخ الممارسات في الإسلام ص ١٤٠-١٤١ .
- ٨٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ٢٦٤/٥ ومقدمة ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٢٨٥ .
- ٨٥- Major: A History of Med. p.260 .
- ٨٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٢٠٤/٢ .
- ٨٧- القلقشندي: صبح الأعشى ٣/٣٦٩ .
- ٨٨- أحمد عيسى: تاريخ الممارسات في الإسلام، مصدر سابق، ص ٢٢٤ .
- ٨٩- المصدر السابق نفسه ٢٨٩ .
- ٩٠- المعجب في تلخيص أخبار المغرب نقلاً عن أحمد عيسى: تاريخ الممارسات ص ٢٨١ .
- ٩١- المصدر السابق نفس المكان .
- ٩٢- رحلة ابن جبير، مصدر سابق، ص ٢٣ .
- ٩٣- أحمد عيسى: تاريخ الممارسات، مصدر سابق، ص ١٤١-١٤٢ .

- ٩٤- المصدر السابق نفسه ص ٢٨١.
- ٩٥- نقلاً عن المصدر السابق نفسه ص ١٩٠.
- ٩٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٢/٣٤٤.
- ٩٧- أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات، مصدر سابق، ص ١٧٨.
- ٩٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٢/٢٠٤.
- ٩٩- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٣٦٨-٣٦٩. نص وقفية الملك المنصور قلاوون على بيمارستانه منشور في أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام في الصفحات ١٣٤-١٤٩. ووقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا منشورة في الكتاب نفسه في الصفحات ١٤٩-١٥٨، وسنكتفي في الهوامش التالية بالإشارة فقط إلى رقم السطر من الوقفتين المذكورتين.
- ١٠٠- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٢٩١-٢٩٣.
- ١٠١- وقفية البيمارستان المنصوري، المرجع السابق، السطر ٢٩٣-٢٩٦ و ٢٩٩-٣٠٠ و ٣٠٤.
- ١٠٢- وقفية البيمارستان المنصوري، المرجع السابق، السطر ٤٢-٤٣.
- ١٠٣- وقفية البيمارستان المنصوري، المرجع السابق، السطر ٣٠١-٣٠٤.
- ١٠٤- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ١١/٢٤٨.
- ١٠٥- المصدر السابق نفسه ٤/٣٨-٣٩.
- ١٠٦- المصدر السابق نفسه ٤/٢٢٧.
- ١٠٧- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سبق ذكره، السطر ٣٣٥-٣٣٦.
- ١٠٨- وقفية البيمارستان المنصوري، المرجع السابق، السطر ٣٢٥-٣٢٧.
- ١٠٩- وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا السطر ٦٩.
- ١١٠- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٣٦٩ و ٣٨٣-٣٨٤.
- ١١١- وقفية البيمارستان القيمري نقلاً عن خطط الشام ٦/١٦٣.
- ١١٢- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٣٤٤-٣٤٧.
- ١١٣- وقفية البيمارستان المنصوري، المرجع السابق، السطر ٣٥١-٣٥٤.
- ١١٤- وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا، مرجع سابق، السطر ٧٣-٧٥.
- ١١٥- وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا، المرجع السابق، السطر ٩٥.
- ١١٦- انظر أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مصدر سابق، ص ٢٨١.
- ١١٧- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٣٨٨.

- ١١٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٢٠٣/٢-٢٠٤.
- ١١٩- وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا، مرجع سابق، السطر ٣٧ و٤١-٤٢.
- ١٢٠- وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا، مرجع سابق، السطر ٩٢-٩٣، وأيضاً وقفية البيمارستان المنصوري السطر ٣٨٨-٣٨٩.
- ١٢١- انظر أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مصدر سابق، ص ٢٨١.
- Major: A History of Med. P.260.
- ١٢٢- الخطط المقرزية ٢٦١/٤، وأحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص ٩٩ و٢٤٥.
- ١٢٣- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٣٥٠-٣٥١ و٣٩٨-٣٩٩.
- ١٢٤- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، الأسطر ٣٤٨ و٣٥١ و٣٥٦-٣٥٧ و٣٦٨-٣٧١.
- ١٢٥- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٣٥٨-٣٦٠.
- ١٢٦- وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا، مرجع سابق، السطر ٨٧-٨٨.
- ١٢٧- وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا، مرجع سابق، السطر ٦٩-٧١.
- ١٢٨- انظر وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٣٩٥-٣٩٦. وأرجع إلى أمر تعيين ناظر البيمارستان النوري بدمشق.
- ١٢٩- انظر أمر تعيين ناظر البيمارستان النوري.
- ١٣٠- ارجع إلى الهامش السابق.
- ١٣١- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مرجع سابق، ٨٣/١٢-٨٤.
- ١٣٢- أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مرجع سابق، ص ٨٨.
- ١٣٣- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٣٥٨-٣٦٠.
- ١٣٤- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٣٦٠-٣٦٥.
- ١٣٥- أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام مصدر سابق، ص ٨٨-٨٩.
- ١٣٦- وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا، مرجع سابق، السطر ٧١-٧٢.
- ١٣٧- عن مهتار الشرابخانا والشرابدار: ارجع إلى القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سبق ذكره ١٠/٤.
- ١٣٨- وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا، مرجع سبق ذكره، السطر ٥١-٥٣.
- ١٣٩- أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مصدر سابق، ص ٨٩.
- ١٤٠- محمد كرد علي: خطط الشام ١٦٣/٦.
- ١٤١- نقلاً عن: القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ١١/٤٥ هامش ٣.

- ١٤٢- المصدر السابق نفسه ٤٧/١١ هامش ١.
- ١٤٣- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٣٣٠-٣٣٣.
- ١٤٤- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ٥٣٢/٣.
- ١٤٥- المصدر السابق نفسه ٤٦/١١-٤٧.
- ١٤٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٢٠٣/٢.
- ١٤٧- للرجوع إلى النص الكامل لهاتين الوقفتين وإلى النصوص التي أوردناها المنقولة منها، ارجع إلى الهامش ٩٩ من هذا الفصل.
- ١٤٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٣٤٤/٢.
- ١٤٩- المصدر السابق نفسه ٣٤٤/٢.
- ١٥٠- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٣٧١-٣٧٩.
- ١٥١- وقفية الأمير عبدالرحمن كتخدا، مرجع سابق، السطر ٥٠-٥١.
- ١٥٢- ارجع إلى الفصل السادس من الباب الثاني من كتابنا هذا.
- ١٥٣- ارجع إلى الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب.
- ١٥٤- كسابقه.
- ١٥٥- وقفية الأمير عبدالرحمن كتخدا، مرجع سابق، السطر ٤٣-٤٩.
- ١٥٦- المصدر السابق نفسه السطر ٩٣-٩٤.
- ١٥٧- رحلة ابن جبير، مرجع سابق، ص ٢٨٣.
- ١٥٨- سبق أن تحدثنا بما يكفي عن الدستور الطبي وما أورده الرهاوي، وابن الأخوة، والشيذري، وما جاء في وقفية البيمارستان المنصوري، يمكن الرجوع إليها.
- ١٥٩- وقفية البيمارستان المنصوري، مرجع سابق، السطر ٢٩٩ و ٣٧٩-٣٨٢.
- ١٦٠- وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا، مرجع سابق، السطر ٤٠-٤٢.
- ١٦١- الخطط المقرية، مرجع سابق، ٢٦٠-٢٦١/٤.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم.
عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط٢، بيروت: دار الثقافة،
١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- الأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي.
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار
الكتب، تحقيق فهد محمد شلتوت، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والنشر، (د. ت).
- ابن الأثير، علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين.
الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفدا عبد الله القاضي، ط٢، بيروت: دار
الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- ابن الأخوة القرشي، محمد بن محمد بن أحمد.
معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق محمد محمود شعبان؛ صديق
أحمد عيسى المطيعي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،
١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

- إلهي، فضل.

الحسبة: تعريفها ومشروعيتها ووجوبها، ط٤، باكستان: إدارة ترجمان الإسلام سي، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

- الأنطاكي، داود بن عمر.

تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجائب، تحقيق علي شيري، بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- البار، محمد علي.

المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب، ط١، جدة: دار المنارة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

- الإمام علي الرضا ورسائله في الطب النبوي، ط٢، بيروت: دار المناهل، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل.

صحيح البخاري، مراجعة وضبط محمد علي قطب؛ و د. هشام البخاري، ط٣، بيروت: صيدا: المكتبة العصرية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

- بدر، عبد الباسط.

التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ط١، المدينة المنورة: (د. ن)، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

- البغدادي، محمود شكري الألوسي.
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، بيروت:
دار الكتب العلمية، (د.ت).
- ابن البيطار، العشاب المألقي.
- تتقيح الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، حققه وهذبه محمد العربي
الخطابي، ط ١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م.
- البيهقي، علي بن زيد.
- تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي، دمشق: المجمع العلمي
العربي ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
- ابن تيمية، تقي الدين أحمد.
- الحسبة في الإسلام، تحقيق سيد بن محمد بن أبي سعدة، الكويت: مكتبة
دار الأرقم، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ابن جبير، أبو الحسين محمد.
- رحلة ابن جبير، بيروت: دار الشرق العربي، (د.ت).
- ابن جلجل، سليمان بن حسان.
- طبقات الاطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، ط ٢، بيروت: مؤسسة
الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- الحلو، عبده، وجابر بهزاد.

الوافي في تاريخ العلوم عند العرب، ط١، بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٦م.

- الحموي، صلاح الدين بن يوسف الكحال.

نور العيون وجامع الفنون، حققه د. محمد ظافر الوفائي؛ راجعه د. محمد رواس قلعجي، ط١، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- الخطيب، حنيفة.

الطب عند العرب، بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٨م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.

مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، ط٢، صيدا؛ بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦.

- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت: دار صادر، (د.ت).

- الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب.

مفاتيح العلوم، تقديم د. جودت فخر الدين، بيروت: دار المناهل،
١٤١١هـ/١٩٩١.

- دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين، ترجمة عبد الحميد يونس
وآخرون، القاهرة: (د.ن)، ١٩٣٣م.

- دمج، محمد أحمد.

مرايا الأمراء، مع تحقيق كتاب قابوس نامه (النصيحة)، بيروت: مؤسسة
بحسون؛ دار المنال، ١٩٩٤م.

- الدميري، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى.

حياة الحيوان الكبرى، وضع حواشيه أحمد حسن بسج، ط١، بيروت: دار
الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

- ابن رسول، الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي.

المعتمد في الأدوية المفردة، صححه وفهرسه مصطفى السقا، بيروت: دار
العلم، (د.ت).

- ريسلر، جاك.

الحضارة العربية، تعريب د. خليل أحمد خليل، ط١، بيروت: مؤسسة
بحسون؛ دار المنال، ١٩٩٤م.

- الرهاوي، إسحاق بن علي.

أدب الطبيب، تحقيق د. مريزن سعيد مريزن عسيري، ط١، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

- الزركلي، خير الدين.

الأعلام، ط٨، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٩م.

- الزهراوي، أبو القاسم خلف بن عباس.

المقالة الثلاثون من التصريف لمن عجز عن التأليف، تحقيق د. عبد العزيز ناصر الناصر؛ د. علي بن سليمان التويجري، ط٢، الرياض: (د. ن)، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

- سابق، السيد.

فقه السنة، جدة: مكتبة الخدمات الحديثة، (د. ت).

- سارتون، جورج.

تاريخ العلم، ترجمة إبراهيم مدكور وآخرون، ط٢، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م.

- السباعي، زهير.

خلق الطبيب المسلم، ط١، الدمام: دار ابن القيم، ١٤١٠هـ/١٩٩٦م.

- السنامي، عمر بن محمد بن عوض.

نصاب الاحتساب، تحقيق د. مؤل يوسف عزالدين، الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- ابن سينا، الحسين بن علي.

القانون في الطب، تحقيق د. إدوار القش؛ د. علي زيعور، بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

أمراض العين وعلاجاتها، تحقيق د. محمد ظافر الوفاي؛ د. محمد رواس قلعة جي، ط١، بيروت: دار النفائس، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

- شلق، علي.

الطب عند العرب، طرابلس: جروس برس، ١٩٩٢م.

- آل الشيخ، عبد الرحمن بن حسن.

فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، الرياض: مكتبة دار السلام؛ دمشق: مكتبة دار الفيحاء، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر.

نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، ط٢، بيروت: دار الثقافة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

- صاعد، أبو العلاء صاعد بن الحسن الطبيب.

التشويق الطبي، تحقيق د. مريزن سعيد مريزن عسييري، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

- الطبري، محمد بن جرير.

تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، بيروت: دار سويدان، (د. ت).

- عبد السلام، حسن.

بين الصيدلي والعطار، ط١، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٣.

- عدس، عبد الرحمن، وذوقان عبيدات، وكايد عبد الحق.

البحث العلمي، ط٢، الرياض: دار أسامة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

- العريني، السيد الباز.

الممالك، بيروت: دار النهضة العربية، (د. ت).

- العطار الهاروني، ابو المنى داود بن أبي النصر.

منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان،

تحقيق د. حسن عاصي، بيروت: دار المناهل، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

- العفنان، سعد بن خلف.

حقيقة العرب، ط١، حائل: (د. ن)، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

- عكاوي، رحاب خضر.
الموجز في تاريخ الطب عند العرب، بيروت: دار المناهل، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- عمر، الفاضل العبيد.
أمراض الجراثيم بين الوقاية والعلاج في الطب الإسلامي، ط١، مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- عيسى، أحمد.
تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط٢، بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- معجم الأطباء، ط٢، بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- غريبال، بيار، وآخرون.
موسوعة تاريخ أوروبا العام، ترجمة أنطوان الهاشم، ط١، بيروت - باريس: منشورات عويدات، ١٩٩٥.
- أبو الفتح الابشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد.
المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- الفراء الحنبلي، أبو يعلى محمد بن الحسن.

الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- فروخ، عمر، وماهر عبد القدر، وحسان حلاق.

تاريخ العلوم عند العرب، بيروت: دار النهضة العربية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

- فروخ، عمر.

تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون، ط٤، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣م.

- القلقشندي، أحمد بن علي.

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- ابن قيم الجوزية، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي.

الطب النبوي، تحقيق محمد علي قطب، بيروت؛ صيدا: المكتبة العصرية، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء إسماعيل.

تفسير القرآن العظيم، مأخوذة عن مخطوطة دار الكتب المصرية، قدم له عبد القادر الارناؤوط، ط١، الرياض: مكتبة دار السلام؛ دمشق: مكتبة دار الفيحاء، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

- كمال، حسن.
- الطب المصري القديم، القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٤.
- علي، محمد كرد.
- خطط الشام، بيروت: ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي.
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- المتيت، أبو اليزيد علي.
- جرائم الإهمال، ط٥، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م.
- محمد، ماهر عبد القادر.
- دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩١م.
- مرداد، محمد عبد الحميد.
- مدائن صالح تلك الأعجوبة، ط٢، جدة: المكتبة الصغيرة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- المرعشي، محمد بن أبي بكر.
- ترتيب العلوم، تحقيق محمد بن إسماعيل السيد أحمد، ط١، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- مسعود، ميخائيل.

الأساطير والمعتقدات العربية قبل الإسلام، ط١، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٤م.

- المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئزية، القاهرة: مكتبة الآداب، (د.ت).

مسودة كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

- الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غريبال، صورة طبق الأصل عن طبعة ١٩٦٥م، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (د.ت).

- النبراوي، فتحية عبد الفتاح.

تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ط٧، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

- ابن النديم، محمد بن إسحاق.

الفهرست، اعتنى به وعلق عليه إبراهيم رمضان، ط٢، بيروت: دار المعرفة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

- نعمة الله، هيكمل، والياس مليحة.

موسوعة علماء الطب، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

- ابن النفيس، علاء الدين بن أبي الحزم.

شرح فصول أبقراط، تحقيق يوسف زيدان؛ ماهر عبد القادر، القاهرة:

الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠م.

- هونكة، زيجريد.

شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون؛ كمال الدسوقي،

راجعته مارون عيسى الخوري، ط٨، بيروت: دار الجيل؛ دار الآفاق الجديدة،

١٩٩٣م.

المراجع الأجنبية

- Bettmann, Otto L. -

A Pictorial History of Medicine, Charles C Thomas. Publisher, Illinois, 1972.

- Dash , V. B. and Kashyap , V. L.

Basic Principles of Ayurveda, Concept. Publ. Co. New Delhi, 1980.

- Major, Ralph H.

A History of Medicine, Charles C Thomas. Publisher, Illinois, 1954.

- Udupa, K. N.

The Ayurvedic System of Medicine in India, W H O, Geneva, 1975.